الوسائل التربوية

دروس التوبة

من مدارج السالكين لابن القيم

اختصار وترتيب : رائد عبدالعزيز المهيدب

موقع مسكي - فضاء العقول

مركز استراتيجيات التربية

دروس التوبة

من مدارج السالكين

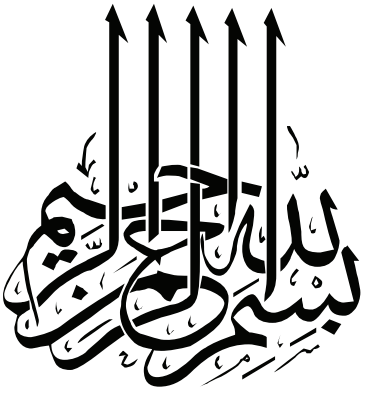
بسم الله الرحمن الرحيم

دروس التوبة

من مدارج السالكين

اختصار وتبويب ومراجعة

رائد عبد العزيز المهيدب

مراجعة

اللجنة العلمية في مركز استراتيجيات التربية

ح رائد عبد العزيز المهيدب، ١٤٣٧هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
المهيدب، رائد عبد العزيز
دروس التوبة من مدارج السالكين. / رائد عبد العزيز المهيدب .- الخبر، ١٤٣٧هـ
٢٠٧ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٩ ـ ١٩٥٩ ـ ٠٢ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ الوعظ والإرشاد ٢ ـ التوبة أ.العنوان
ديوي ٢١٣ ١٤٣٧/٩١٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله... **وبعد:**

يعتبر كتاب «مدارج السالكين» لابن القيم من الكتب الإيمانية والسلوكية الرائعة والتي ينبغي أن يستفيد منها الطالب والعَالِم أيضاً، وهو من الكتب التي تجمع بين أسس العقيدة والعمق في الجانب الإيماني والسلوكي، مصححاً كثيراً من الانحرافات الفكرية والعقدية. وقد كُتِب هذا الكتاب في زمن تختلف فيه الانحرافات في طبيعتها عما هو في عصرنا، مما جعل ابن القيم يطيل النفس والكلام فيها، وهذه الإطالة قد تفقد قارئ اليوم التركيز على الهدف المرجو منه.

وإنه لمن توفيق الله لي أني تعرفت على كتاب «مدارج السالكين» منذ الدراسة الجامعية وكم كنت أتمنى أن يكون خالياً من التفرع في الجوانب التي لا تمس حياة القارئ المعاصر، فإن القارئ المعاصر يبحث عن الاختصار والبعد عن التكرار، واستهداف الفائدة الإيمانية المرجوة، وحينما ظهر كتاب «تهذيب المدارج» كان عملاً إيجابياً في تسهيل المادة، وسرني تقليص بعض التفرعات، ولكنني لاحظت أن التهذيب لم يصل إلى ما نرجوه؛ وذلك أن المادة في تهذيب مدارج السالكين ـ في ظني ـ تحتاج إلى تيسير أكبر واختصار للقراءة، كما تحتاج إلى مزيد من التقريب، وزاد من إشكال ذلك دمج نصوص لمحقق الكتاب الأصل، كما أنه نقل عدداً من الأحاديث الضعيفة التي كانت موجودة في الأصل، وظهر مختصر آخر لمدارج السالكين ولكنه ـ في ظني ـ حذف كثيراً من المقالات المفيدة مما قلص الفائدة المرجوة.

ومن هنا كان هذا الاختصار، والذي تم ترتيبه وتجزئته كدروس صغيرة رغبة في الوصول إلى ما ينفع القارئ المبتدئ، والطالب، والداعية، والمربي، بصورة أكثر تيسيراً، والهدف هو التسهيل لمادة الكتاب بدون أيَّة مشغلات تبعد القارئ عن أصل المادة الإيمانية الرائعة فيه. والله أحمد أن تعهدت هذا الكتاب بالقراءة مرة بعد مرة، وتناولته بالاختصار مرات متعددة خلال عدة سنوات مما عمق معرفتي بمعانيه وجوانبه، لقد استشعرت تأثير هذا الكتاب في حياتي في فهم كثير من الأمور الخافية عليَّ سابقاً وبصورة أكثر عمقاً وتأثيراً، كما كان الكتاب عوناً لي في التعرف على سبيل الله ﷻ، فتزودت منه بزاد جعلني أبصر الطريق بصورة أكثر جمالاً وإسعاداً وإجلالاً.

وكان عملي في الكتاب هو:

١ ـ اختصار النص وتقطيعه كدروس، ليكون مناسباً للقراءة الخاصة أو القراءة على الآخرين، وراعيت أن يكون الاختصار جامعاً للفوائد العلمية والتوجيهات الإيمانية متجنباً الاستطالة في التفرعات التي لا تحقق التمتع بالمادة الأساسية.

٢ ـ التأكد من صحة الأحاديث، وحذف الأحاديث الضعيفة، وتم استخدام بعض الكتب والمواقع من أهمها: موقع الدرر السنية، وبرنامج مكتبة الألباني، والذي يحتوي على سبعين كتاباً من كتب الشيخ الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ وذلك لتسهيل المهمة وتسريعها، هذا وقد كشفت رحلة التوثيق عن عدد من الأحاديث الضعيفة، بل قد يصل بعضها إلى درجة الموضوع.

٣ ـ التأكد من متن الحديث في حالة صحة الحديث، وضبط النص غير الثابت بنصوص صحيحة.

٤ ـ المحافظة على نص الكتاب ما أمكن ذلك، إلا ما كان من

بعض العناوين والتي جاءت مقتبسة من النص الأصلي، أو ما كان من وصل جملتين تم حذف ما بينها من تفريعات، أو ما يشابه ذلك. ونادراً جداً ما كان هناك من تقديم أو تأخير أو تعديل.

هذا؛ وقد رأيت أن بعض الأجزاء المتقدمة تشمل كثيراً مما ورد في الأجزاء المتأخرة من الكتاب في معانيها وفوائدها؛ لذا ركزت على الدروس والمنازل الأُول للكتاب، سائلاً الله تعالى أن يجزي من شجعني وحفزني على إنجاز هذا الكتاب، وكذلك من شجعني من المربين من داخل مركز إستراتيجيات التربية، والله يغفر لي تقصيري وما توفيقي إلا بالله ﷻ.

رائد عبد العزيز المهيدب

اشتمال سورة الفاتحة
على إثبات النبوات وطلب الهداية

اعلم أن سورة الفاتحة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتمّ اشتمال، فاشتملت على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء إليها مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا، وهي: الله والرب والرحمٰن، كما تضمنت إثبات المعاد وجزاء العباد بأعمالهم حسنها وسيّئها، وتفرد الربّ تعالى بالحكم وكون حكمه بالعدل، وكل هذا تحت قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

كما تضمنت إثبات النبوات من: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فلا يليق به أن يترك عباده سدى هملاً لا يعرِّفهم ما ينفعهم في معاشهم، ومعادهم، وما يضرهم، ومن اسمه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ فإن رحمته تمنع إهمال عباده وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم، ومن ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم فيثيبهم على الخيرات ويعاقبهم على المعاصي والسيئات، وما كان الله ليعذب أحداً قبل إقامة الحجة عليه، والحجة إنما قامت برسله وكتبه، ومن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ فإن ما يعبد به الرب تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه ولا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم.

ومن قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ فالهداية هي البيان والدلالة

ثم التوفيق والإلهام، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف، ترتب عليه هداية التوفيق وجعل الإيمان في القلب، وتحبيبه إليه، وجعله مؤثراً له راغباً فيه. ومن هنا يُعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاوناً وكسلاً أو لا نقدر مثل ما نريده أو أكثر منه، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوت الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامّة فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبة أخرى وهي آخر مراتبها وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة وهو الصرط الموصل إليها، فمن هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه؛ هُدِي هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار؛ يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط، فمنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمشي مشياً ومنهم من يحبوا حبواً ومنهم المخدوش ومنهم المكردس في النار، فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا حذو القذّة بالقذّة، جزاءً وفاقاً، ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط تخطفه وتعوقه عن المرور عليه، فإن كثرت هنا وقويت، فكذلك هي هناك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير والسلامة من كل شر.

طوائف المنعم عليهم والمغضوب عليهم وأهل الضلال في سورة الفاتحة

وفي ذكر المنعم عليهم وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال في سورة الفاتحة، انقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة؛ لأن العبد إما أن يكون عالماً بالحق أو جاهلاً به، والعالم بالحق إما أن يكون عاملاً بموجبه أو مخالفاً له، فهذه أقسام المكلفين لا يخرجون عنها. فالعالم بالحق العامل به هو المنعم عليه، وهو الذي زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح و﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾، والعالم به المتبع هواه هو المغضوب عليه، والجاهل بالحق هو الضال.

ومن ههنا كان اليهود أحق بوصف الغضب وهو متغلظ في حقهم كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]. والجاهل بالحق أحق باسم الضلال، ومن هنا وصفت النصارى به في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، ومن حديث عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «**فإن اليهود مغضوب عليهم**

وإن النصارى ضلال»[1].

وتأمَّل المقابلة بين الهداية والنعمة والغضب والضلال، فذكر ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ في مقابلة المهتدين المنعم عليهم، وهذا كثير في القرآن يقرن بين الضلال والشقاء، وبين الهدى والفلاح.

(١) رواه الترمذي وحسنه الألباني ٥/ ٢٠٢.

أضاف الله إلى نفسه أكمل الأمور

وأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين وأسبقهما وأقواهما، وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعم إليه، وحذف الفاعل في مقابلتهما، كقول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، ومنه قوله الخضر في شأن الجدار واليتيمين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]، وقال في خرق السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والله سبحانه هو المنفرد بالنعم: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، فأضيف إليه ما هو منفرد به، وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقاً ومجرى للنعمة، وأن النعمة المطلقة منه وحده[1].

(١) من أروع الفوائد في الأدب مع الله ﷻ.

ذكر الرفيق يزيل الوحشة

ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثر الناس ناكبون عنه، والنفوس مجبولة على وحشة التفرد، وعلى الأنس بالرفيق؛ نبّه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق وأنهم هم الذين: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾، فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه.

وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له فإنهم هم الأقلون قدراً وإن كانوا الأكثرين عدداً، كما قال بعض السلف: عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلّة السالكين، وإيّاك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين، وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغض الطرف عمن سواهم فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً، ولا تلتفت إليهم فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك.

وقد ضربت لذلك **مثلين** فليكونا منك على بال:

المثل الأول: رجل خرج من بيته إلى الصلاة لا يريد غيرها، فعرض له في طريقه شيطان من شياطين الإنس فألقى عليه كلاماً يؤذيه فوقف ورد عليه وتماسكا، فربما كان شيطان الإنس أقوى منه فقهره

ومنعه عن الوصول إلى المسجد حتى فاتته الصلاة، وربما كان الرجل أقوى من شيطان الإنس ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول وكمال إدراك الجماعة، فإن التفت إليه أطمعه في نفسه، فإن كان له معرفة وعلم، زاد في السعي، فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده وخاف فوت الصلاة أو الوقت؛ لم يبلغ عدوّه منه ما شاء.

المثل الثاني: الظبي أشد سعياً من الكلب ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه فيدركه الكلب فيأخذه.

والقصد أن في ذكر هذا الرفيق ما يزيل وحشة التفرد ويحثّ على السير والتشمير للحاق بهم، وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت اللَّهُمَّ اهدني فيمن هديت؛ أي: أدخلني في هذه الزمرة واجعلني رفيقاً لهم ومعهم.

وسيلة سؤال الله تعالى

ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلّ المطالب، ونيله أشرف المواهب؛ علَّم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده، ثم ذِكر عبوديتهم وتوحيدهم فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم، توسل إليه بأسمائه وصفاته وتوسل إليه بعبوديته. وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء، ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم، أحدهما حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو وهو يقول: اللَّهُمَّ إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إلٰه إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فقال: «**والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى**»[1]، فهذا توسل إلى الله بتوحيده.

والثاني: حديث أنس رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ جالساً ورجل يصلي ثم دعا: «**اللَّهُمَّ إني أسألك بأن لك الحمد، لا إلٰه إلا أنت المنَّان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قَيُّومُ**» فقال النبي ﷺ: «**لقد سأل الله باسمه الأعظم**»[2]، **فهذا توسل إليه**

(١) رواه الترمذي ٥/ ٥١٥، وصححه الألباني.

(٢) رواه الترمذي ٥/ ٥٥٠، وصححه الألباني.

بأسمائه وصفاته وتوسل إليه بحمده والثناء عليه ثم سأله المغفرة.

ولهذا كان الحمد لله حمداً لا يحصيه سواه، لكمال صفاته وكثرتها، وذم الله تعالى آلهة الكفار وعابها بأنها لا تسمع، ولا تبصر، ولا تتكلم، ولا تهدي، ولا تنفع، ولا تضر، فقد قال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام في محاجّته لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

دلالة أسماء الله ﷻ

أسماء الرب تبارك وتعالى دالّة على صفات كماله، فهي مشتقّة من الصفات، وبذلك كانت حسنى، إذ لو كانت ألفاظاً لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال، ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان.

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها، قال تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، فعلم أن القوي من أسمائه ومعناه الموصوف بالقوة. وكذلك قوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾، ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾، وفي «صحيح البخاري» عن عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات»[1]، وفي «الصحيح» حديث الاستخارة: «**اللَّهُمَّ إنّي أستخيرُك بعلمِك، وأستقدِرُك بقُدْرَتِك**»[2]، فهو قادر بقدرة وقال تعالى لموسى: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ فهو متكلم بكلام.

---

(١) رواه البخاري في باب قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾.

(٢) صححه الألباني في جامع الترمذي ٢/ ٣٤٥.

وأيضاً لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معانٍ وصفات، لم يُسَغْ أن يخبر عنه بأفعالها، فإن من جعل معنى اسم التواب هو معنى اسم المنتقم، ومعنى اسم المعطي هو معنى اسم المانع، فقد كابر العقل واللغة والفطرة.

فنفي معاني أسمائه من أعظم الإلحاد فيها والإلحاد فيها أنواع هذا أحدها.

اسم الله دال على جميع الأسماء الحسنى

فاسم الله دال على جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا، وهي صفات الكمال المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص، ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾. ويقال: الرحمٰن والرحيم والقدوس والسلام والعزيز والحكيم من أسماء الله، ولا يقال الله من أسماء الرحمٰن ونحو ذلك. فعلم أن اسمه (الله) مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى دال عليها بالإجمال.

واسم الله دالّ على كونه مألوهاً معبوداً تألهه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب. وصفات الجلال والجمال أخص باسم الله، وصفات الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة أخص باسم الرب، وصفات الإحسان والجود والبر والحنان والمنة والرأفة واللطف أخص باسم الرحمٰن.

وصفات العدل والقبض والبسط والخفض والرفع والعطاء والمنع والإعزاز والإذلال والقهر والحكم ونحوها أخص باسم الملك، وخصه بيوم الدين وهو الجزاء بالعدل لتفرده بالحكم فيه وحده، ولأنه اليوم الحق وما قبله كساعة ولأنه الغاية وأيام الدنيا مراحل إليه.

دلالة اسم الرحمن

فالرحمٰن الذي الرحمة وصفه، والرحيم الراحم لعباده، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يجيء رحمان بعباده ولا رحمان بالمؤمنين، مع ما في اسم الرحمٰن الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف، ألا ترى أنهم يقولون غضبان للممتلئ غضباً، ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الاسم كثيراً كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، فاستوى على عرشه باسم الرحمٰن لأن العرش محيط بالمخلوقات قد وسعها. والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾، فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات فلذلك وسعت رحمته كل شيء.

فتأمل هذا ينفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى.

دلالة الحمد

إن في ذكر الأسماء (الله، الرب، الرحمٰن، الملك) بعد الحمد وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها ما يدل على أنه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إلٰه محمود، ورب محمود، ورحمان محمود، وملك محمود، فله بذلك جميع أقسام الكمال؛ كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧]، فقدرته كمال، ومغفرته كمال، واقتران القدرة بالمغفرة كمال. وكذلك العفو بعد القدرة، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، واقتران العلم بالحلم قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

فما كل من قدر عفا، ولا كل من عفا يعفو عن قدرة، ولا كل من علم يكون حليماً، ولا كل حليم عالم، فما قرن شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم، ومن عفو إلى قدرة، ومن ملك إلى حمد، ومن عزة إلى رحمة، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩]

مراتب الهداية الخاصة والعامة وهي عشر مراتب

المرتبة الأولى: مرتبة تكليم الله ﷻ لعبده يقظة بلا واسطة، وهذه أعلى مراتبها كما كلم موسى بن عمران صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه، قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، وهذا يدل على أن التكليم الذي حصل له أخصّ من مطلق الوحي الذي ذكر في أول الآية.

المرتبة الثانية: مرتبة الوحي المختص بالأنبياء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾، والوحي في اللغة هو الإعلام السريع الخفي.

المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري فيوحى إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه. وهذا الرسول الملكي قد يتمثل للرسول البشرى رجلاً يراه عياناً ويخاطبه، وقد يراه على صورته التي خلق عليها، وقد يوحى إليه ما يوحيه ثم يفصم عنه؛ أي: يقلع.

فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء لا تكون لغيرهم.

المرتبة الرابعة: مرتبة التحديث، وهذه دون مرتبة الوحي الخاص، كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه كما قال النبي ﷺ: «**إنه قد كان في**

الأُمم قبلكم مُحَدَّثُون، فإن يك في هذه الأمة احدٌ فعمرُ بن الخطاب»[1].

قال شيخنا: وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات حدثني قلبي عن ربي فصحيح أن قلبه حدثه ولكن عمن؟ أعن شيطانه أو عن ربه؟ قال: ومحدث الأمة لم يكن يقول ذلك بل كتب كاتبه يوما هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فقال: لا امحه واكتب هذا ما رأى عمر بن الخطاب فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمن عمر، والله ورسوله منه بريء، فهذا قول المحدَث بشهادة الرسول ﷺ، فانظر إلى ما بين القائليْن والمرتبتيْن والقوليْن والحاليْن.

المرتبة الخامسة: مرتبة الإفهام، قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]، فذكر هذين النبيين الكريمين وأثنى عليهما بالعلم والحكم وخص سليمان بالفهم في هذه الواقعة المعينة.

فالفهم نعمة من الله على عبده ونور يقذفه الله في قلبه يعرف به ويدرك مالا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص مالا يفهمه غيره مع استوائهما في حفظه وفهم أصل معناه.

والفهم عن الله ورسوله فيه تفاوتت مراتب العلماء حتى عدَّ ألف بواحد، فانظر إلى فهم ابن عباس وقد سأله عمر ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ وما خص به ابن عباس من فهمه منها، أنها نَعْيُ اللهِ سبحانه نبيه إلى نفسه وإعلامه بحضور أجله، وموافقة عمر له على ذلك، وخفائه عن غيرهما من الصحابة، وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سناً، وأين تجد في هذه السورة الإعلام

(١) البخاري (٣٦٨٩)، ورواه الترمذي ٥/ ٦٢٢، وحسنه الألباني.

بأجله لولا الفهم الخاص. ويدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس.

المرتبة السادسة: مرتبة البيان العام وهو تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه بحيث يصير مشهوداً للقلب كشهود العين للمرئيات، وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه التي لا يعذب أحداً ولا يضله إلا بعد وصوله إليها.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، فهذا الإضلال عقوبة منه لهم حين بيّن لهم فلم يقبلوا ما بيَّنه لهم ولم يعملوا به فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحداً قط إلا بعد هذا البيان، والقرآن يصرِّح بهذا في غير موضع كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٦]، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقّنوه وتحققوه، بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له. فتأمل هذا الموضع حق التأمل فإنه موضع عظيم.

والبيان نوعان: بيان بالآيات المسموعة المتلوّة، وبيان بالآيات المشهودة المرئية، وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله، وصدق ما أخبرت به رسله عنه. ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكير في آياته المشهودة ويحضَّهم على التفكّر في هذه وهذه، وبعد ذلك يضلّ الله من يشاء قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. فالرسل تبين والله هو الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء بعزته وحكمته.

المرتبة السابعة: البيان الخاص وهو البيان المستلزم للهداية

الخاصة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب، فلا تتخلف عنه الهداية ألبتّة، قال تعالى في هذه المرتبة: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

المرتبة الثامنة: مرتبة الإسماع قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾، وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ فإن ذلك حاصل لهم وبه قامت الحجة عليهم، لكن ذاك إسماع الآذان وهذا إسماع القلوب. فسماع لفظه حظ الأذن وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب، فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذي هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٣]. وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه، وأما مقصود السماع وثمرته والمطلوب منه فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه.

فهو إذن ثلاث مراتب سماع الأذن وسماع القلب وسماع القبول والإجابة.

المرتبة التاسعة: مرتبة الإلهام قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨]، والتحديث أخص من الإلهام. فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن فقد ألهمه الله رشده الذي حصل له به الإيمان، فالتحديث إلهام خاص وهو الوحي إلى غير الأنبياء كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ فهذا وحي إلهام، وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قيل في تفسيرها قووا قلوبهم وبشروهم بالنصر.

المرتبة العاشرة: الرؤيا الصادقة وهي من أجزاء النبوة، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**الرُّؤيا الصَّادِقَةُ جَزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوّة**»[1].

وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثاً وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطئ كما قال النبي ﷺ[2]، وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها، فيتعوض المؤمنون بالرؤيا وأما في زمن قوة نور النبوة ففي ظهور نورها وقوته ما يغني عن الرؤيا ونظير هذا الكرامات التي ظهرت بعد عصر الصحابة، ولم تظهر عليهم لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم واحتياج من بعدهم إليها لضعف إيمانهم.

وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب، والذي هو من أسباب الهداية هو الرؤيا التي من الله خاصة. ورؤيا الأنبياء وحي فإنها معصومة من الشيطان وهذا باتفاق الأمة، ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليه السلام بالرؤيا، وأما رؤيا غيرهم فتعرض على الوحي الصريح فإن وافقته وإلا لم يعمل بها.

ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحرَ الصدق وأكل الحلال والمحافظة على الأمر والنهي ولينم على طهارة كاملة مستقبل القبلة ويذكر الله حتى تغلبه عيناه، فإن رؤياه لا تكاد تكذب ألبتّه، وأصدق الرؤيا رؤيا الأسحار فإنه وقت النزول الإلٰهي واقتراب الرحمة والمغفرة وسكون الشياطين وعكسه رؤيا العتمة عند انتشار الشياطين، والله أعلم.

---

(١) صحيح البخاري (٦٩٨٣).

(٢) صحيح الترمذي ٤/ ٥٣٢.

اشتماله الفاتحة على الشفاءين
وأولها شفاء القلوب

فأما اشتمالها على شفاء القلوب فإنها اشتملت عليه أتمّ اشتمال. فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم وفساد القصد، ويترتب عليهما داءان قاتلان وهما الضلال والغضب، فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد، وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها.

فهداية الصراط المستقيم تتضمن الشفاء من مرض الضلال، ولذلك كان سؤال هذه الهداية أفرض دعاء على كل عبد وأوجبه عليه في كل صلاة لشدة ضرورته، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه.

وبـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ علماً ومعرفةً وعملاً وحالاً يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد، فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل، وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته من المشركين ومتبعي الشهوات، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأي طريق كان من حق أو باطل، فإذا جاء الحق معارضاً في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل، وإن جاء الحق ناصراً لهم وكان لهم صالوا به وجالوا وأتوا إليه مذعنين، لا لأنه حق بل لموافقته غرضهم وأهواءهم وانتصارهم به،

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: ٤٨ ـ ٥٠].

والمقصود أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم، وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها واضمحلت وفنيت حصلوا على أعظم الخسران والحسرات، فياله هناك من علم لا ينفع عالمه ويقين لا ينجني مستيقنه.

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة، بل توسل إليه بوسيلة ظنّها موصلة إليه وهي من أعظم القواطع عنه، فحاله أيضا كحال هذا، وكلاهما فاسد القصد ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، وهما الرياء والكبر، فدواء الرياء بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ودواء الكبر بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وكثيراً ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء، فإذا عوفي من مرض الرياء بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ومن مرض الكبرياء والعجب بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ومن مرض الضلال والجهل بـ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ عوفي من أمراضه وأسقامه ورفل في أثواب العافية وتمت عليه النعمة، وكان من المنعم عليهم ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم أهل فساد القصد الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهم أهل فساد العلم الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه. وحق لسورة تشتمل على هذين الشفاءين أن يستشفى بها من كل مرض.

ثانيها: اشتمال الفاتحة على شفاء الأبدان

وأما تضمنها لشفاء للأبدان فنذكر منه ما جاءت به السنّة وما شهدت به قواعد الطب ودلت عليه التجربة.

فأما ما دلت عليه السُّنَّة: ففي «الصحيح»: انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط، إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم، والله إني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيِّفونا، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلاً. فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قلبة. قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقسموا، فقال الذي رقي: لا تفعلوا حتى نأتي النبي ﷺ فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله فذكروا له، فقال: «**وما يدريك أنها رُقية؟**»، ثم قال: «**قد أصبتم، اقسموا، واضربوا لي معكم سهماً**». فضحك

رسول الله ﷺ[1]. فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه فأغنته عن الدواء، وربما بلغت من شفائه ما لم يبلغه الدواء، هذا مع كون المحل غير قابل إما لكون هؤلاء الحي غير مسلمين، أو أهل بخل ولؤم، فكيف إذا كان المحل قابلاً؟!

فإذا قابلت النفس الزكية العلوية الشريفة التي فيها غضب وحميّة للحق هذه النفوس الخبيثة السمية، وتكيفت بحقائق الفاتحة وأسرارها ومعانيها وما تضمنته من التوحيد والتوكل والثناء على الله، وذكر أصول أسمائه الحسنى وذكر اسمه الذي ما ذكر على شر إلا أزاله ومحقه، ولا على خير إلا نمّاه وزاده؛ دفعت هذه النفس بما تكيّفت به من ذلك أثر تلك النفس الخبيثة الشيطانية فحصل البرء، ولا يتم هذا إلا بقوة من النفس الفاعلة وقبول من الطبيعة المنفعلة.

فهنا أمور ثلاثة موافقة الدواء للداء، وبذل الطبيب له، وقبول طبيعة العليل، فمتى تخلف واحد منها لم يحصل الشفاء، وإذا اجتمعت حصل الشفاء ولا بد بإذن الله ﷻ، كما أن السيف بضاربه مع قبول المحل للقطع والله أعلم.

وأما شهادة التجارب بذلك: فهي أكثر من أن تذكر وذلك في كل زمان وقد جربت أنا من ذلك في نفسي وفي غيري أموراً عجيبة ولا سيما مدة المقام بمكة، فإنه كان يعرض لي آلام مزعجة بحيث تكاد تقطع الحركة مني، وذلك في أثناء الطواف وغيره، فأبادر إلى قراءة الفاتحة وأمسح بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط جربت ذلك مراراً عديدة وكنت آخذ قدحاً من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مراراً فأشربه فأجد به من النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء، والأمر أعظم من ذلك ولكن بحسب قوة الإيمان وصحة اليقين والله المستعان.

---

(١) صحيح البخاري ٢١٥٦.

العبادة والاستعانة وأقسام الناس فيهما

والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، والعرب تقول: طريق معبد؛ أي: مذلل، فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له، لم تكن عابداً له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابداً له حتى تكون محباً خاضعاً.

والاستعانة تجمع أصلين: الثقة بالله والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجته إليه ولعدم من يقوم مقامه، والتوكل معنى يلتئم من أصلين من الثقة والاعتماد.

فإذا التزمت عبوديته ودخلت تحت رقِّها أعانك عليها، وكلّما كان العبد أتمّ عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم، والعبودية محفوفة بإعانتين إعانة قبلها على التزامها والقيام بها وإعانة بعدها على عبودية أخرى وهكذا أبداً حتى يقضي العبد نحبه. وأما تقديم المعبود والمستعان[1] على الفعلين ففيه أدب مع الله بتقديم اسمه على فعلهم وفيه الاهتمام وشدة العناية به.

---

(١) أي: ﴿إِيَّاكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

أقسام الناس في العبادة والاستعانة[1]

إذا عرفت هذا فالناس في هذين الأصلين وهما العبادة والاستعانة **أربعة أقسام**:

القسم الأول: أجلّها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم، وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها، ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته، وهو الذي علَّمه النبي ﷺ لحِبِّه معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال: «**يا معاذ والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دُبُرَ كلِّ صلاةٍ: اللَّهُمَّ أعنِّي على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك**»[2]. فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا وتيسير أسبابه، وعلى دفع ما يضاده، فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

القسم الثاني: وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة

---

(١) من درر ابن القيم رحمه الله.

(٢) رواه أبو داود (١٥٢٢)، وإسناده صحيح.

ولا استعانة. بل إن سأله أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته لا على مرضاة ربه وحقوقه، فإنه سبحانه يسأله من في السمٰوات والأرض، يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمدّ هؤلاء وهؤلاء، وأبغض خلقه عدوه إبليس ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إيّاها ومتّعه بها، ولكن لما لم تكن عوناً له على مرضاته؛ كانت زيادة له في شقوته وبعده عن الله وطرده عنه، وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ولم يكن عوناً على طاعته كان مبعداً له عن مرضاته قاطعاً له عنه ولا بد.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره وليعلم أنَّ إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكه وشقوته لهوانه عليه وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له فيمنعه حمايةً وصيانةً وحفظاً لا بخلاً، فيظن بجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه ويراه يقضي حوائج غيره فيسيء ظنّه بربه، والمعصوم من عصمه الله والإنسان على نفسه بصيرة.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً عاقبته مغيّبة عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بدّاً فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة، وقدِّم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه ولا قدرة له عليها ولا اهتداء له إلى تفاصيلها ولا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، بل إن وكّل إلى نفسه هلك كل الهلاك وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال؛ تسأله أن يجعله عوناً لك على طاعته وبلاغاً إلى مرضاته ولا يجعله قاطعاً لك عنه ولا مبعداً عن مرضاته. ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان يمتحن بهما عباده، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ

رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٧]. فرد الله سبحانه على من ظنّ أن سعة الرزق إكرام وأن الفقر إهانة فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته عليَّ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليَّ. فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته ويقتر على المؤمن لا لإهانته، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته فله الحمد على هذا وعلى هذا وهو الغني الحميد[1].

فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة، فقلّ نصيبهم من ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف، فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير بحسب استعانتهم وتوكلهم، ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم، ولو توكّل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه وكان مأموراً بإزالته لأزاله.

فإن قلت فما معنى التوكل والاستعانة، قلت: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير والضر والنفع والعطاء والمنع وأنه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس. فيوجب له هذا اعتماداً عليه وتفويضاً إليه وطمأنينةً به وثقةً به ويقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه مليء به، ومن كان هكذا مع الله فالله كافيه ولا بد، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾؛ أي: كافيه.

---

(١) من درر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

القسم الرابع: وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولم يَدُر مع ما يحبه ويرضاه، فتوكل عليه واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه، فقضيت له وأسعف بها سواءً كانت أموالاً أو رياسةً أو جاهاً أو تأثيراً وقوة وتمكيناً ولكن لا عاقبة له، فإنها من جنس المُلك الظاهر والأموال لا تستلزم الإسلام فضلاً عن الولاية والقرب من الله، فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر والمؤمن والكافر، فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه وأنه من أوليائه المقربين فهو من أجهل الجاهلين، والمال إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته وتنفيذ أوامره ألحقه بالملوك العادلين البررة، وإلا فهو وبال على صاحبه ومبعد له عن الله وملحق له بالملوك الظلمة والأغنياء الفجرة.

أصلان عظيمان
المتابعة والإخلاص وأقسام الناس فيهما

لا يكون العبد متحققاً بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلا **بأصلين عظيمين**:

أحدهما: متابعة الرسول ﷺ.

والثاني: الإخلاص للمعبود فهذا تحقيق إيّاك نعبد.

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضاً إلى **أربعة أقسام**:

أحدها: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة، وهم أهل إيّاك نعبد حقيقة، فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده لا يريدون بذلك من الناس جزاءً ولا شكوراً، ولا ابتغاء الجاه عندهم ولا طلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم، ولا هرباً من ذمّهم، بل قد عدّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً. ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم.

وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال

الفضيل بن عياض: العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه. والخالص ما كان لله والصواب ما كان على السُّنَّة، وفي «الصحيح» من حديث عائشة عن النبي ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[1]. وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعداً، فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره لا بالآراء والأهواء.

الضرب الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة، فليس عمله موافقاً لشرع، وليس هو خالصاً للمعبود كأعمال المتزينين للناس المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله، وهؤلاء شرار الخلق وأمقتهم إلى الله ﷻ ولهم أوفر نصيب من قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص.

الضرب الثالث: من هو مخلص في أعماله لكنها غير متابعة الأمر، كجهال العباد وكل من عبد الله بغير أمره واعتقد عبادته هذه قربة إلى الله، فهذا حاله كمن يظن أنّ الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة وأنّ مواصلة صوم النهار بالليل قربة وأنّ صيام يوم فطر الناس كلهم قربة وأمثال ذلك.

الضرب الرابع: من أعماله على متابعة الأمر لكنها لغير الله، كطاعة المرائين وكالرجل يقاتل رياءً وحميةً وشجاعةً، ويحج ليقال، ويقرأ القرآن ليقال، فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها، لكنها غير صالحة فلا تقبل: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر والإخلاص له في العبادة، وهم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

---

(١) رواه البخاري في باب النجش.

أفضل العبادة وأنفعها وأصناف الناس فيها

فهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقّها على النفوس وأصعبها.

قالوا: لأنه أبعد الأشياء عن هواها وهو حقيقة التعبد. وقالوا: والأجر على قدر المشقة ورووا حديثاً لا أصل له: (أفضل الأعمال أحمرها)؛ أي: أصعبها وأشقها وهؤلاء هم أهل المجاهدات والجور على النفوس.

الصنف الثاني: قالوا أفضل العبادات التجرد والزهد في الدنيا والتقلل منها غاية الإمكان وعدم الاكتراث بكل ما هو منها، فعوامهم ظنّوا أن هذا غاية، فشمروا إليه، وعملوا عليه، ودعوا الناس إليه، وقالوا هو أفضل من درجة العلم والعبادة.

وخواصهم رأوا هذا مقصوداً لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله، وتفريغ القلب لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته. فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله، ودوام ذكره بالقلب واللسان، والاشتغال بمراقبته دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعدّ، فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر، فرأوا رحمة الفقراء والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل الأعمال. واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النفَّاع متعدّ إلى الغير، وأين أحدهما من الآخر؟ قالوا ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. قالوا وقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**لأن يهديَ الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النِّعم**»[1]، **وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدي**.

واحتجّوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم ونفعهم في معاشهم ومعادهم،لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب، ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك النفر الذين همّوا بالانقطاع للتعبد وترك مخالطة الناس.

الصنف الرابع: قالوا إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته.

فأفضل العبادات في وقت الجهاد الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً القيام بحقه والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل في وقت السحر الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار.

---

(١) متفق عليه.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب وتعليم الجاهل الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في وقت الأذان ترك ما هو فيه من ورده والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في وقت الصلوات الخمس الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه والمبادرة إليها في أول الوقت والخروج إلى الجامع وإن بعد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن أو المال، الاشتغال بمساعدته وإغاثة لهفته وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن الهمّة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة الإكثار من التعبد لا سيما التكبير والتهليل والتحميد فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادته وحضور جنازته وتشييعه.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم دون الهرب منهم، فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضل خلطتهم في الخير فهي خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشر فهو أفضل من خلطتهم فيه، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم[1].

فالأفضل في كل وقت وحال إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته، فهو يعبد الله على وجه واحد، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت، فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى، فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العباد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم.

فهو على مراد ربه ولو كانت راحة نفسه ولذّتها في سواه، فهذا هو المتحقق بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بهما، دائر مع الأمر حيث دار، يأنس به كل محق ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة كلها منفعة حتى شوكها وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله والغضب إذا انتهكت محارم الله، فهو لله وبالله ومع الله.

فواهاً له ما أغربه بين الناس! وما أشد وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به وطمأنينته وسكونه إليه! والله المستعان وعليه التكلان.

---

(١) إلا إذا علم أو غلب على ظنه أنه سيضعف وينحرف ففي هذه الحالة تركهم صوناً للدين أفضل والله أعلم.

أصل العبادة محبة الله وطاعته

فأصل العبادة: محبة الله بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه، فمحبتنا لهم من تمام محبته.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه، ولهذا جعل تعالى اتِّباع رسوله علماً عليها وشاهداً لمن ادعاها، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فيستحيل إذاً ثبوت محبتهم لله وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله ﷺ.

ودلَّ على أن متابعة الرسول ﷺ هي: حبّ الله ورسوله وطاعة أمره، ولا يكفي ذلك في العبودية حتى يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما، فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله. ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه ألبتَّة ولا يهديه الله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فكل من قدَّم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله أو قول

أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه أو معاملة أحدهم على معاملة الله، فهو ممن ليس الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وإن قاله بلسانه فهو كذب منه وإخبار بخلاف ما هو عليه.

وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله، فذلك المقدَّم عنده أحب إليه من الله ورسوله، لكن قد يشتبه الأمر على من يقدم قول أحد أو حكمه أو طاعته أو مرضاته ظنّاً منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما قاله الرسول، فيطيعه ويحاكم إليه ويتلقى أقواله كذلك، فهذا معذور، وأما إذا قدر على الوصول إلى الرسول ولم يلتفت إلى الرسول ولا إلى من هو أولى به فهذا الذي يخاف عليه وهو داخل تحت الوعيد.

قواعد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وكمال أصحابها والبشارة لهم

وبني ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان والقلب وعمل القلب والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك والدعوة إليه والذب عنه وتبيين بطلان البدع المخالفة له والقيام بذكره وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضى به وعنه، والموالاة فيه والمعاداة فيه، والذل له، والخضوع والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح، ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات ومساعدة العاجز والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك.

فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التزام لأحكام هذه الأربعة وإقرار بها، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، و﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ متضمن إلهام القيام بهما وسلوك طريق السالكين إلى الله بها.

العبودية وصف أكمل الخلق

والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه وأقربهم إليه فقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ إلى آخر السورة. ووصف أكرم خلقه وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] فذكره بالعبودية في مقام الإسراء.

لزوم إياك نعبد لكل عبد إلى الموت

ولزوم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لكل عبد إلى الموت، قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾، وقال أهل النار: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٦، ٤٧]، واليقين ههنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير.

وكلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه، ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ بل على جميع الرسل أعظم من الواجب على أممهم، والواجب على أولى العزم أعظم من الواجب على من دونهم، والواجب على أولى العلم أعظم من الواجب على من دونهم، وكل أحد بحسب مرتبته.

أهل العبودية لهم البشرى

وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، وجعل الأمن المطلق لهم فقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٦٨، ٦٩].

وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به، فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

انقسام العبودية إلى عامة وخاصة

العبودية نوعان: عامة وخاصة.

فالعبودية العامة: عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله، برّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة وإتباع الأوامر، قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، وقال تعالى عن إبليس: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، فقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقاً إلا لهؤلاء.

قواعد العبودية

ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة من كمّلها كمّل مراتب العبودية.

وبيانها أن العبودية منقسمة على: القلب واللسان والجوارح وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب ومستحب وحرام ومكروه ومباح وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح.

عبودية القلب

فواجب القلب المتفق على وجوبه: كالإخلاص والتوكل والمحبة والصبر والإنابة والخوف والرجاء والتصديق الجازم والنية في العبادة، وهذه قدر زائد على الإخلاص. فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره، واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة، وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين أو بضعٍ وتسعين موضعاً من القرآن.

وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان واجب مستحق وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحب وهو مرتبة المقربين.

وأما المحرمات التي عليه فالكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والغفلة، والنفاق، وهي نوعان: كفر ومعصية.

فالكفر كالشك والنفاق والشرك وتوابعها.

والمعصية نوعان: كبائر وصغائر.

فالكبائر كالرياء، والعجب، والكبر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من رحمة الله، واليأس من رَوح الله والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذى المسلمين والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله وتمنى زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريماً من الزنا وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة، ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها والتوبة منها، وإلا فهو قلب فاسد، وإذا فسد القلب فسد البدن، وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب وترك القيام بها.

فوظيفة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على القلب قبل الجوارح فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولا بد وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه وقد تكون كبائر بحسب قوتها وغلظها وخفتها ودقتها.

ومن الصغائر أيضا شهوة المحرمات، وتمنيها وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر بحسب تفاوت درجات المشتهي فشهوة الكفر والشرك كفر، وشهوة البدعة فسق، وشهوة الكبائر معصية فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب، وإن تركها عجزاً بعد بذله مقدوره في تحصيلها استحق عقوبة الفاعل لتنزيله منزلته في أحكام الثواب والعقاب وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع.

وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه.

عبوديات اللسان

وأما عبوديات اللسان الخمس:

فواجبها: النطق بالشهادتين وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله، كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود وأمر بالتشهد وأمر بالتكبير.

ومن واجبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الجاهل وإرشاد الضال وأداء الشهادة المتعيّنة وصدق الحديث ورد السلام.

وأما مستحبه فتلاوة القرآن ودوام ذكر الله والمذاكرة في العلم النافع وتوابع ذلك.

وأما محرمه فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله: كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله والدعاء إليها وتحسينها وتقويتها، وكالقذف وسب المسلم وأذاه بكل قول والكذب وشهادة الزور والقول على الله بلا علم وهو أشدها تحريماً.

ومكروهه التكلم بما تَركُه خير من الكلام به.

وأكثر ما يكبُّ الناس على مناخرهم في النار حصائد ألسنتهم. وكل ما يتلفظ به اللسان فإما أن يكون مما يرضى الله ورسوله أو لا، وهذا بخلاف سائر الجوارح فإن صاحبها ينتفع بتحريكها في المباح المستوى الطرفين لما له في ذلك من الراحة والمنفعة، فأبيح له استعمالها فيما فيه منفعة له ولا مضرة عليه فيه في الآخرة، وأما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا يكون إلا مضرّة.

عبودية الجوارح

وأما العبوديات الخمس على الجوارح فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضاً، إذ الحواس خمسة، وعلى كل حاسة خمس عبوديات.

فعلى السمع: وجوب الإنصات والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر الإمام بها.

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة من رده أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسره ولا يحب أن يطلعك عليه ما لم يكن متضمناً لحق لله يجب القيام به أو لأذى مسلم يتعين نصحه وتحذيره منه. وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب، التي تُخشى الفتنة بأصواتهن إذا لم تدع إليه حاجة من شهادة، أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة ونحوها، وكذلك استماع المعازف وآلات الطرب واللهو، ولا يجب عليه سد أذنه إذا سمع الصوت وهو لا يريد استماعه، إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات، فحينئذ يجب لتجنب سماعها وجوب سد الذرائع.

وأما المستحب فكاستماع المستحب من العلم وقراءة القرآن وذكر الله، واستماع كل ما يحبه الله وليس بفرض.

والمكروه عكسه وهو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه. والمباح ظاهر.

وأما النظر الواجب: فالنظر في المصحف وكتب العلم، والنظر إذا تعيّن لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها أو ينفقها، أو يستمتع بها، والأمانات التي يؤديها إلى أربابها، ليميز بينها ونحو ذلك.

والنظر الحرام النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقاً، وبغيرها إلا

لحاجة كنظر الخاطب والشاهد والحاكم والطبيب وذي المحرم.

والمستحب النظر في كتب التي يزداد بها الرجل إيماناً وعلماً، والنظر في المصحف ووجوه العلماء الصالحين والوالدين، والنظر في آيات الله المشهودة ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته.

والمكروه فضول النظر الذي لا مصلحة فيه. وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام.

والمباح النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة.

ومن النظر الحرام النظر إلى العورات.

وأما الذوق الواجب: فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه وخوف الموت، فإنْ تركه حتى مات مات عاصياً قاتلاً لنفسه. قال الإمام أحمد وطاووس: من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار.

والذوق الحرام كذوق الخمر والسموم القاتلة، والذوق الممنوع منه للصوم الواجب.

وأما المكروه فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وكأكل أطعمة المرائين في الولائم[1] والدعوات ونحوها.

والذوق المستحب أكل ما يعينك على طاعة الله ﷻ مما أذن الله فيه، والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل فينال منه غرضه، والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب.

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها للأمر به عند الشارع.

---

(١) فكيف بابن القيم لو رأى ما عليه الناس في زماننا من إسراف في المآكل والمجالس في الأعراس.

والذوق المباح ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم فالشم الواجب: كل شم للتمييز بين الحلال والحرام، كالشم الذي تعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة، وهل هي سم قاتل أو لا مضرة فيه، ونحو ذلك.

وأما الشم الحرام فالتعمد لشم الطيب في الإحرام، وشم الطيب المغصوب والمسروق، وتعمد شمّ الطيب من النساء الأجنبيات؛ خشية الافتتان بما وراءه.

وأما الشم المستحب فشم ما يعينك على طاعة الله، ويقوي الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل، ومن هذا الطيب والريحان إذا أهديت لك.

والمكروه كشم طيب الظَلَمة وأصحاب الشبهات ونحو ذلك.

والمباح ما لا منع فيه من الله ولا تبعة ولا فيه مصلحة دينية ولا تعلق له بالشرع.

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس فاللمس: الواجب كلمس الزوجة حين يجب جماعها والأَمّة الواجب إعفافها.

والحرام لمس ما لا يحل من الأجنبيات.

والمستحب إذا كان فيه إعفاف أهله.

والمكروه لمس الزوجة في الإحرام للذة، وكذلك في الاعتكاف، وفي الصيام إذا لم يأمن على نفسه.

والمباح ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية.

وهذه المراتب أيضا مرتبة على البطش باليد والمشي بالرجل وأمثلتها لا تخفى.

فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله واجب، وفي

وجوبه لقضاء دينه خلاف والصحيح وجوبه ليمكّنه من أداء دينه، ولا يجب لإخراج الزكاة. وفي وجوبه لأداء فريضة الحج نظر والأقوى في الدليل وجوبه لدخوله في الاستطاعة وتمكنه بذلك من أداء النسك. ومن البطش الواجب إعانة المضطر ورمي الجمار ومباشرة الوضوء والتيمم.

والحرام كقتل النفس التي حرم الله قتلها ونهب المال المعصوم وضرب من لا يحل ضربه ونحو ذلك، وكأنواع اللعب المحرم بالنص كالنرد، أو ما هو أشد تحريما منه كالشطرنج أو مثله، وكتابة الزور والظلم والحكم الجائر والقذف والتشبيب بالنساء الأجانب، وكتابة ما فيه مضرة على المسلمين في دينهم أو دنياهم ولا سيما أن كسبت عليه مالاً: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾، وكذلك كتابة المفتي على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله إلا أن يكون مجتهداً مخطئاً فالإثم موضوع عنه.

وأما المكروه فكالعبث واللعب الذي ليس بحرام، وكتابة ما لا فائدة في كتابته ولا منفعة فيه في الدنيا والآخرة.

والمستحب كتابة كل ما فيه منفعة في الدين أو مصلحة لمسلم والإحسان بيده، بأن يعين صانعاً أو يصنع لأخرق، أو يخلو من دلوه في دلو المستسقى، أو يحمل له على دابته، أو يمسكها حتى يحمل عليها، أو يعاونه بيده فيما يحتاج له، ونحو ذلك ومنه لمس الركن بيده في الطواف.

والمباح مالا مضرة فيه ولا ثواب.

وأما المشي الواجب فالمشي إلى الجمعات والجماعات، والمشي حول البيت للطواف الواجب، والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه، والمشي إلى حكم الله ورسوله إذا دعي إليه، والمشي إلى صلة رحمه وبر والديه، والمشي إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه،

والمشي إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر.

والحرام المشي إلى معصية الله وهو من رَجل الشيطان، قال تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾، فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس.

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضاً:

فواجبه في الركوب في الغزو والجهاد الحج الواجب.

ومستحبه في الركوب المستحب من ذلك ولطلب العلم وصلة الرحم وبر الوالدين.

وحرامه الركوب في معصية الله ﷻ.

ومكروهه الركوب للهو وكل ما تركه خير من فعله.

ومباحه الركوب لما لم يتضمن فوت أجر ولا تحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء: القلب، واللسان، والسمع، والبصر، والأنف، والفم، واليد، والرجل، والفرج، والاستواء على ظهر الدابة.

المنازل الأساسية الأربعة الأولى

هي:

١ ـ اليقظة.

٢ ـ الفكرة.

٣ ـ البصيرة.

٤ ـ العزم.

أولاً: منزلة اليقظة

فأول منازل العبودية اليقظة وهي: انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين.

ولله ما أنفع هذه الروعة! وما أعظم قدرها وخطرها! وما أشد إعانتها على السلوك! فمن أحس بها فقد أحس والله بالفلاح، وإلا فهو في سكرات الغفلة، فإذا انتبه شمّر لله بهمته إلى السفر إلى منازله الأولى وأوطانه التي سُبي منه.

فحيَّ على جنات عدنٍ فإنّها منازلك الأولى وفيها المخيمُ
ولكننا سَبْيُ العدوِّ فهل تُرى نعود إلى أوطاننا ونسلَّمُ

فانتقل إلى منزلة العزم وهو العقد الجازم على المسير ومفارقة كل قاطع ومعوق، ومرافقة كل معين وموصل وبحسب كمال انتباهه ويقظته يكون عزمه وبحسب قوة عزمه يكون استعداده.

فإنه إذا نهض من ورطة الغفلة أوجب له ملاحظة نعم الله الباطنة والظاهرة، وكلما حدق قلبه فيها شاهد عظمتها وكثرتها، فيئس من عدّها والوقوف على حدها، فتيقن حينئذ تقصيره في واجبها وهو القيام بشكرها. فأوجب له:

الأول: محبة المنعم واللهج بذكره، وتذكر الله وخضوعه له وإزراءه

على نفسه، فصار متحققاً بـ: «أبوءُ لك بنعمتِك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت»[1]، وعلم حينئذ أن هذا الاستغفار حقيق بأن يكون سيد الاستغفار.

الثاني: «مطالعة الجناية» والوقوف على الخطر فيها، فينظر إلى ما سلف منه من الإساءة، ويعلم أنه على خطر عظيم فيها، وقد ذم الله تعالى في كتابه من نسي ما تقدم يداه فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٢٧].

فإذا طالع جنايته شمّر لاستدراك الفارط بالعلم والعمل، وتخلص من رِقّ الجناية بالاستغفار والندم وطلب «التمحيص».

التمحيص

والتمحيص: تخليص إيمانه ومعرفته من خبث الجناية كتمحيص الذهب والفضة، ولا يمكن دخوله الجنة إلا بعد هذا التمحيص؛ فإنها طيّبة لا يدخلها إلا طيّب. ولهذا تقول لهم الملائكة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، فليس في الجنة ذرة خبث.

وهذا التمحيص يكون في دار الدنيا بأربعة أشياء: بالتوبة، والاستغفار، وعمل الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، فإن محصّته هذه الأربعة وخلّصته كان من الذين تتنزل عليهم الملائكة عند الموت ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وإن لم تفِ هذه الأربعة بتمحيصه مُحِّص في البرزخ **بثلاثة أشياء**:

أحدها: صلاة أهل الإيمان الجنازة عليه، واستغفارهم له، وشفاعتهم فيه.

---

(١) صحيح الجامع.

الثاني: تمحيصه بفتنة القبر، وروعة الفتّان، والعصرة، والانتهار، وتوابع ذلك.

الثالث: ما يهدي إخوانه المسلمون إليه من هدايا الأعمال من الصدقة عنه والحج والصيام عنه وقراءة القرآن عنه والصلاة وجعل ثواب ذلك له. وقد أجمع الناس على وصول الصدقة والدعاء قال الإمام أحمد لا يختلفون في ذلك وما عداهما فيه اختلاف.

فإن لم تفِ هذه بالتمحيص مُحِّص بين يدي ربه في الموقف بأربعة أشياء: أهوال القيامة، وشدّة الموقف، وشفاعة الشفعاء، وعفو الله ﷻ.

فإن لم تفِ هذه الثلاثة بتمحيصه فلا بد له من دخول الكير رحمةً في حقه؛ ليتخلص ويتمحص ويتطهر في النار، فتَكون النار طُهرة له وتمحيصاً لخبثه، ويكون مُكثُه فيها على حسب كثرة الخبث وقلّته وشدَّته وضعفه، فإذا خرج خبثه وصُفِّي ذهبه، وصار خالصاً طيباً، أُخرج من النار وأدخل الجنة.

مطالعة الجناية

وأما مطالعة الجناية فإنها تصح بثلاثة أشياء: بتعظيم الحق ومعرفة النفس وتصديق الوعيد.

يعني: أن من كملت عظمة الحق تعالى في قلبه عظمت عنده مخالفته؛ لأن مخالفة العظيم ليست كمخالفة من هو دونه، ومن عرف قدر نفسه وحقيقتها وفقرها الذاتي إلى مولاها الحق في كل لحظة ونَفَس وشدة حاجتها إليه؛ عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه في كل لحظة ونَفَس، فإذا عرف حقارتها مع عظم قدر من خالفه؛ عظمت الجناية عنده فشمَّر في التخلص منها، وبحسب تصديقه بالوعيد ويقينه به يكون تشميره في التخلص من الجناية التي تلحق به.

ومدار السعادة وقطب رحاها على التصديق بالوعيد، فإذا تعطل من قلبه التصديق بالوعيد خرب خراباً لا يرجى معه فلاح ألبتَّة. والله تعالى أخبر أنه إنما تنفع الآيات والنذر لمن صدق بالوعيد وخاف عذاب الآخرة، فهؤلاء هم المقصودون بالإنذار والمنتفعون بالآيات دون من عداهم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾، وقال: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

والذي يملك به ذلك كله خروجه عن العادات والمألوفات وتوطين النفس على مفارقتها والغربة بين أهل الغفلة والإعراض، وما على العبد أضر من ملك العادات له، وما عارض الكفار الرسل إلا بالعادات المستقرة الموروثة لهم عن الأسلاف الماضين، فمن لم يوطن نفسه على مفارقتها والخروج عنها والاستعداد للمطلوب منه فهو مقطوع وعن فلاحه وفوزه ممنوع.

منزلة الفكرة

فإذا استيقظ أوجبت له اليقظة الفكرة. وهي: تحديق القلب نحو المطلوب.

فالفكرة في التوحيد استحضار أدلته وشواهد الدلالة على بطلان الشرك واستحالته، وأنه لا تصح العبادة إلا للإله الحق والرب الحق وهو الله الواحد القهار.

فحظ الحقيقة الدينية القيام بأمره ومحبة ما يحبه، وكراهة ما يكرهه، وموالاة من والاه، ومعاداة من عاداه، وأصل ذلك الحب فيه والبغض فيه.

وحظ الحقيقة الكونية إفراده بالافتقار إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، والالتجاء إليه، وإفراده بالسؤال والطلب والتذلل والخضوع، والتحقق بأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يملك أحد سواه لهم ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وأنه مقلب القلوب فقلوبهم ونواصيهم بيده، وأنه ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابعه إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه.

ولا تتم العبودية إلا بمجموعها وهذا حقيقة قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

والجامع لهذا كله تحقيق شهادة أن لا إلٰه إلا الله علماً ومعرفةً وعملاً وحالاً وقصداً.

وحقيقة هذا النفي والإثبات الذي تضمنته هذه الشهادة، فيفنى عن تأليه ما سواه علماً وإقراراً وتعبداً ويبقي بتأليهه وحده. فهذا الفناء وهذا البقاء هو حقيقة التوحيد الذي عليه المرسلون، وأنزلت به الكتب، وخلقت لأجله الخليقة، وشرعت له الشرائع، وقام عليه سوق الجنة، وهي حقيقة المحو والإثبات، فيمحو محبة ما سوى الله ﷻ من قلبه علماً وقصداً وعبادةً كما هي ممحوة من الوجود ويثبت فيه إلهيته سبحانه وحده.

وحقيقته أيضاً البراء والولاء: البراء من أعداء الله والولاء لله كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال الله تعالى: لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى آخرها. وهذه براءة منهم ومن معبودهم وسماها براءة من الشرك.

منزلة البصيرة

فإذا صحت «فكرته» أوجبت له البصيرة: وهي نور في القلب يبصر به الوعد والوعيد والجنة والنار وما أعد الله في هذه لأوليائه وفي هذه لأعدائه، فأبصر الناس وقد خرجوا من قبورهم مهطعين لدعوة الحق، وقد نزلت ملائكة السموات فأحاطت بهم، وقد جاء الله لفصل القضاء، ووُضِع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء، وقد نصب الميزان وتطايرت الصحف، واجتمعت الخصوم وتعلَّق كل غريم بغريمه، ولاح الحوض، وكثر العطاش، ونصب الجسر للعبور، وقسمت الأنوار للعبور عليه، والنار يحطم بعضها بعضاً تحته، والمتساقطون فيها أضعاف أضعاف الناجين، فيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة، يريه الآخرة ودوامها، والدنيا وسرعة انقضائها.

والبصيرة على ثلاث درجات من استكملها فقد استكمل البصيرة: بصيرة في الأسماء والصفات، وبصيرة في الأمر والنهي، وبصيرة في الوعد والوعيد.

فالبصيرة في الأسماء والصفات: أن يشهد قلبك الرب تبارك وتعالى مستوياً على عرشه، بصيراً بحركات العالم علويّه وسفليّه وأشخاصه وذواته، سميعاً لأصواتهم، رقيباً على ضمائرهم وأسرارهم، وأملاكه بين يديه تنفذ أوامره في أقطار الممالك، موصوفاً بصفات الكمال منعوتاً

بنعوت الجلال، منزه عن العيوب والنقائص والمثال، هو كما وصف نفسه في كتابه وفوق ما يصفه به خلقه، حي لا يموت قيوم لا ينام، عليم لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، بصير يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، سميع يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، جلّت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبهاً ومثلاً، وتعالت ذاته أن تشبه شيئاً من الذوات أصلاً، ووسعت الخليقة أفعاله عدلاً وإحساناً وفضلاً، له الخلق والأمر وله النعمة والفضل وله الملك والحمد وله الثناء والمجد، أسماؤه كلها أسماء مدح وحمد وثناء وتمجيد ولذلك كانت حسنى، وصفاته كلها صفات كمال ونعوته كلها نعوت جلال.

كل شيء من مخلوقاته دال عليه، ومرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه، لم يخلق السمٰوات والأرض وما بينهما باطلاً، ولا ترك الإنسان سدى عاطلاً، بل خلق الخلق لقيام توحيده وعبادته، وأسبغ عليهم نعمه ليتوسلوا بشكرها إلى زيادة كرامته، تعرَّف إلى عباده بأنواع التعرفات، وصرف لهم الآيات ونوَّع لهم الدلالات، ودعاهم إلى محبته من جميع الأبواب، ومدَّ بينه وبينهم من عهده أقوى الأسباب، فأتمَّ عليهم نعمه السابغة وأقام عليهم حجته البالغة، أفاض عليهم النعمة وكتب على نفسه الرحمة، وضَمَّنَ الكتاب الذي كتبه: أن رحمته تغلب غضبه.

وتفاوت الناس في هذه البصيرة بحسب تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية وفهمها.

المرتبة الثانية من البصيرة: البصيرة في الأمر والنهي، وهي تجريده عن المعارضة بتأويل أو هوى، فلا يقوم بقلبه شبهة تعارض العلم بأمر الله ونهيه، ولا شهوة تمنع من تنفيذه وامتثاله والأخذ به.

المرتبة الثالثة: البصيرة في الوعد والوعيد: وهي أن تشهد قيام الله

على كل نفس بما كسبت في الخير والشر عاجلاً وآجلاً، في دار العمل ودار الجزاء، وأن ذلك هو موجب إلهيته وربوبيته وعدله وحكمته، فإنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ولا يليق أن ينسب إليه تعطيل الخليقة وإرسالها هملاً وتركها سدىً، تعالى الله عن هذا الحسبان علواً كبيراً. فشهادة العقل بالجزاء كشهادته بالوحدانية، ولهذا كان الصحيح أن المعاد معلوم بالعقل، وإنما اهتدى إلى تفاصيله بالوحي، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرعد: ٥].

والبصيرة تُنبِت في أرض القلب الفراسة الصادقة، وهي نور يقذفه الله في القلب يفرِّق به بين الحق والباطل والصادق والكاذب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، قال مجاهد: للمتفرسين. فيضاف ذلك إلى نور الفراسة والاستعداد فيصير نوراً على نور، فتقوى البصيرة، ويعظّم النور، ويدوم بزيادة مادته ودوامها، ولا يزال في تزايد حتى يُرى على الوجه والجوارح والكلام والأعمال.

فإذا انتبه وأبصر أخذ في القصد وصدق الإرادة، وأجمع القصد والنية على سفر الهجرة إلى الله، وعلم وتيقن أنه لابدّ له منه، فأخذ في أهبة السفر وتعبئة الزاد ليوم المعاد، والتجرد عن عوائق السفر وقطع العلائق التي تمنعه من الخروج بحيث لا يلقى سبباً إلا قطعه ولا حائلاً إلا منعه.

منزلة العزم

فإذا استحكم قصده صار عزماً جازماً مستلزماً للشروع في السفر، مقروناً بالتوكل على الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

والعزم: هو القصد الجازم المتصل بالفعل.

والعزم **نوعان**:

أحدهما: عزم على الدخول في الطريق وهو من البدايات.

والثاني: عزم في حال السير معه وهو أخص من هذا، وحقيقته هو استجماع قوى الإرادة على الفعل. فمن منازل إياك نعبد وإياك نستعين التي لا يكون العبد من أهلها حتى ينزل منازلها: اليقظة والبصيرة والفكرة والعزم.

وهذه المنازل الأربعة لسائر المنازل كالأساس للبنيان وعليها مدار منازل السفر إلى الله، ولا يتصور السفر إليه بدون نزولها ألبتة. وهي على ترتيب السير الحسي، فإن المقيم في وطنه لا يتأتى منه السفر حتى يستيقظ من غفلته عن السفر، ثم يتبصر في أمر سفره وخطره وما فيه من المنفعة له والمصلحة، ثم يفكر في أهبة السفر والتزود وإعداد عدته، ثم يعزم عليه فإذا عزم عليه وأجمع قصده انتقل إلى منزلة المحاسبة، وهي التمييز بين ماله وعليه، فيستصحب ماله ويؤدي ما عليه لأنه مسافر سفر من لا يعود.

واعلم أن ترتيب مقامات ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام ويفارقه وينتقل إلى الثاني كمنازل السير الحسِّي هذا محال. ألا ترى أن «اليقظة» معه في كل مقام لا تفارقه، وكذلك البصيرة والإرادة والعزم، وكذلك التوبة فإنها كما أنها من أول المقامات فهي آخرها أيضاً، بل هي في كل مقام مستصحبة، ولهذا جعلها الله تعالى آخر مقامات خاصته، فقال تعالى في غزوة تبوك وهي آخر الغزوات: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، فجعل التوبة أول أمرهم وآخره، وكذلك الصبر فإنه لا ينفك عنه في مقام من المقامات.

منزلة المحاسبة

ومن منزلة (المحاسبة) يصح له نزول منزلة (التوبة) لأنه إذا حاسب نفسه، عرف ما عليه من الحق فخرج منه، وهي حقيقة التوبة. و(المحاسبة) لا تكون إلا بعد تصحيح التوبة أيضاً، وقد دل على المحاسبة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾. والمقصود من هذا النظر ما يوجبه ويقتضيه من كمال الاستعداد ليوم المعاد، وتقديم ما ينجيه من عذاب الله ويبيض وجهه عند الله، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وتزيَّنوا للعرض الأكبر، ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾.

قال «صاحب المنازل» المحاسبة لها **ثلاثة أركان**:

الركن الأول: من أركان المحاسبة أن تقايس بين نعمته وجنايتك

فيظهر لك التفاوت، وتعلم أنه ليس لك إلا عفوه ورحمته أو الهلاك والعطب، وبهذه المقايسة يتبين لك حقيقة النفس وصفاتها وعظمة جلال الربوبية وتفرد الرب بالكمال والإفضال، وأن كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل، وأن النفس منبع كل شرّ وأساس كل نقص، وأنه

لولا فضل الله ورحمته لتزكيته لها ما زكت أبداً ولولا هداه ما اهتدت ولولا إرشاده لما كان لها وصول إلى خير ألبتّة، فهناك تقول حقّاً «**أبوءُ لك بنعمتك عليَّ، وأبوءُ بذنبي**»[1].

الثاني: أن تقايس بين الحسنات والسيئات فتعلم بهذه المقايسة أيهما أكثر وأرجح قدراً وصفة. «وهذه المقايسة تشق على من ليس له ثلاثة أشياء: نور الحكمة، وسوء الظن بالنفس، وتمييز النعمة من الفتنة».

ونور الحكمة هٰهنا: هو العلم الذي يميز به العبد بين الحق والباطل والهدى والضلال والضار والنافع والكامل والناقص والخير والشر ويبصر به مراتب الأعمال راجحها ومرجوحها، ومقبولها ومردودها، وكلّما كان حظّه من هذا النور أقوى كان حظّه من المحاسبة أكمل وأتم، وهو النور الذي نوّر الله به قلوب أتباع الرسل.

وأما سوء الظن بالنفس: فإنما احتاج إليه لأن حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش ويلبّس عليه فيرى المساوئ محاسناً والعيوب كمالاً.

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكنَّ عين السخط تبدي المساويا

ولا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها، ومن أحسن ظنه بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه.

وأما تمييز النعمة من الفتنة: فليفرق بين النعمة التي يرى بها الإحسان واللطف ويعان بها على تحصيل سعادته الأبدية؛ وبين النعمة التي يرى بها الاستدراج، فكم من مستدرج بالنعم وهو لا يشعر مفتون بثناء الجهّالِ عليه، مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه.

وأكثر الخلق عندهم أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح، ذلك

---

(١) صحيح. صحيح الجامع الصغير.

مبلغهم من العلم، فإذا كملت هذه الثلاثة فيه عرف حينئذ أن ما كان من نعم الله فهو نعمة حقيقة، وما فرقه عنه وأخذه منه فهو البلاء في صورة النعمة، والمحنة في صورة المنحة.

فكل علم صحبه عمل يرضى الله سبحانه فهو منَّة وإلا فهو حجة.

وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهي منَّة وإلا فهي حجة.

وكل حال صحبه تأثير في نصرة دينه والدعوة إليه فهو منَّة منه وإلا فهو حجة.

وكل مال اقترن به إنفاق في سبيل الله وطاعته لا لطلب الجزاء ولا الشكور فهو منَّة من الله عليه وإلا فهو حجة.

وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده فهو منَّة عليه وإلا فهو حجة.

وكل قبول في الناس وتعظيم ومحبة له اتصل به خضوع للرب وذل وانكسار ومعرفة بعيب النفس والعمل وبذل النصيحة للخلق فهو منَّة وإلا فهو حجة.

وكل بصيرة وموعظة اتصل به مزيد في العقل ومعرفة في الإيمان فهي منَّة وإلا فهي حجة.

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر، ويميز بين مواقع المنن والمحن، والحجج والنعم، فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [البقرة: ٢١٣]

الركن الثاني: من أركان المحاسبة

وهي أن تميز ما للحق عليك من وجوب العبودية والتزام الطاعة واجتناب المعصية، وبين ما لك.

فالذي لك: هو المباح الشرعي، فأدِّ ما عليك يؤتك ما لك. وكثير

من الناس يجعل ما عليه من الحق من قسم ما لَهُ، وإن فعله رأى أنه فضل قام به، لا حقٌّ أداه. فيتعبد بترك ما لَه فعله كترك كثير من المباحات ويظن ذلك حقاً عليه، أو يتعبد بفعل ما له تركه ويظن ذلك حقّاً عليه.

مثال الأول: من يتعبد بترك النكاح، أو ترك أكل اللحم، أو الفاكهة مثلاً، أو الطيبات من المطاعم والملابس، ويرى لجهله أن ذلك مما عليه، فيوجب على نفسه تركه، أو يرى تركه من أفضل القُرب وأجلِّ الطاعات، وقد أنكر النبي ﷺ على من زعم ذلك، ففي «صحيح مسلم»: أنَّ نفراً مِن أصحابِ النبيِّ ﷺ سألوا أزواجَ النبيِّ ﷺ عن عملِه في السرِّ؟ فقال بعضُهم: لا أتزوَّجُ النِّساءَ. وقال بعضُهم لا آكلُ اللَّحمَ. وقال بعضُهم: لا أنام على فراشٍ. فحمد اللهَ وأثنى عليه فقال: «**ما بالُ أقوامٍ قالوا كذا وكذا؟ لكني أصلي وأنامُ، وأصوم وأفطرُ، وأتزوَّج النساءَ، فمنْ رغب عن سُنَّتي فليس مِنِّي**»[1]. فتبرأ ممن رغب عن سُنَّته وتعبد لله بترك ما أباحه لعباده من الطيبات.

ومثال الثاني: من يتعبد بالعبادات البدعيَّة، فيتعبد بالتزام تلك اللوازم فعلاً وتركاً ويراها حقاً عليه.

ثالث أركان المحاسبة

ما ذكره «صاحب المنازل»: أن تعرف أن كل طاعة رضيتها منك فهي عليك، وكل معصية عيّرت بها أخاك فهي إليك.

رضاء العبد بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه وجهله بحقوق العبودية، وعدم عمله بما يستحقه الربّ جلّ جلاله ويليق أن يعامل به. وحاصل ذلك: أن جهله بنفسه وصفاتها وآفاتها، وعيوب عمله وجهله

---

(١) متفق عليه.

بربه وحقوقه، وما ينبغي أن يعامل به؛ يتولد منهما رضاه بطاعته وإحسان ظنّه بها، ويتولد من ذلك من العجب والكبر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزنا وشرب الخمر والفرار من الزحف ونحوها، فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها.

وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفاراً عقيب الطاعات، لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه، وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية ولا رضيها لسيده، وقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات، وهو أجلّ المواقف وأفضلها فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٨، ١٩٩]. وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، قال الحسن: «مدوا الصلاة إلى السحر ثم جلسوا يستغفرون الله ﷻ». وأمره الله تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة والقيام بما عليه من أعبائها وقضاء فرض الحج واقتراب أجله، فقال في آخر سورة أنزلت عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾، ومن هنا فهم عمر وابن عباس رضي الله عنهم أن هذا أجل رسول الله ﷺ، فكأنه إعلام بأنك قد أديت ما عليك ولم يبق عليك شيء فاجعل خاتمته الاستغفار، كما كان خاتمة الصلاة والحج وقيام الليل.

وقد قيل: متى رضيت نفسك وعملك لله فاعلم أنه غير راض به، ولله در الشيخ أبي مدين حيث يقول: «من تحقق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرياء وأحواله بعين الدعوى وأقواله بعين الافتراء، وكلما عظم المطلوب

في قلبك صغرت نفسك عندك وتضاءلت القيمة التي تبذلها، وكلما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية وعرفت الله وعرفت النفس وتبين لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق ولو جئت بعمل الثقلين خشيت عاقبته، وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله ويثيبك عليه أيضا بكرمه وجوده وتفضله».

وتعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثماً من ذنبه وأشد من معصيته، لما فيه من صولة الطاعة وتزكية النفس وشكرها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب، وأن أخاك باء به، ولعل كسرته بذنبه، وما أحدث له من الذلة والخضوع والإزراء على نفسه، والتخلص من مرض الدعوى والكبر والعجب، ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب، أنفع له وخير من صولة طاعتك وتكثرك بها، والاعتداد بها، والمنة على الله وخلقه بها، فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله وما أقرب هذا المدلّ من مقت الله! فذنب تذلّ به لديه أحب إليه من طاعة تدلّ[1] بها عليه.

وإنك أن تبيت نائماً وتصبح نادماً خير من أن تبيت قائماً وتصبح معجباً، فإن المعجب لا يصعد له عمل، وإنك أن تضحك وأنت معترف، خير من أن تبكي وأنت مدلّ. وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المدلِّين. ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواءً استخرج به داءً قاتلاً هو فيك ولا تشعر.

فللَّه في أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلا هو، ولا يطالعها إلا أهل البصائر، وكانت عامة يمين رسول الله ﷺ: «**لا وَمُقَلِّبِ القُلُوب**»[2].

---

(١) أي: تمنن بها.

(٢) رواه أبو داود وصححه الألباني ٣/ ٢٢٥.

منزلة التوبة

ومنزلة التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك ولا يزال فيه إلى الممات. فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية كما أن حاجته إليها في البداية كذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وهذه الآية في سورة مدنية خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم ثم علق الفلاح بالتوبة. فلا يرجو الفلاح إلا التائبون جعلنا الله منهم، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، قسّم العباد إلى تائب وظالم، وما ثَمَّ قِسْم ثالث ألبتّة، وأوقع اسم (الظالم) على من لم يتب ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات أعماله.

وفي «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[1]، وقال أصحابه: إن كنا لنعدّ لرسول الله ﷺ في المجلس يقول: «**رب اغفر لي وتب عليَّ، إنك أنت التواب الغفور**» مائة مرة[2]. وصح عنه ﷺ أنه قال: «**لن يدخل أحداً**

(١) البخاري، كتاب الدعوات.

(٢) صححه الألباني، السلسلة الصحيحة.

منكم عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: **ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة**»[1]. فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها.

ولما كانت (التوبة) هي رجوع العبد إلى الله ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين، وذلك لا يحصل إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم، وقد انتظمتها سورة الفاتحة أحسن انتظام وتضمنتها أبلغ تضمّن. فمن أعطى الفاتحة حقّها علم أنه لا تصح له قراءتها إلا بالتوبة النصوح، فإن الهداية التامة إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب، ولا مع الإصرار عليها، فلذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب والاعتراف به وطلب التخلص من سوء عواقبه أولاً وآخراً.

(١) صححه الألباني، السلسلة الصحيحة (١٩٥).

معاني التوبة

وأول معاني التوبة أن تنظر في الذنب إلى **ثلاثة أشياء**:

الأول: انخلاعك عن الاعتصام بالله حين إتيان الذنب، فإنه لو اعتصم بالله لما خرج عن هدايته سبحانه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، ولو كملت عصمته بالله لم يخذله أبداً قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾. فمتى اعتصمتم بالله تولاكم ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان، وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد وعداوتهما أضرّ من عداوة العدو الخارج، وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله، فما خلى الله بينك وبين الذنب إلا بعد أن خذلك وخلى بينك وبين نفسك، ولو عصمك ووفَّقك لما وجد الذنب إليك سبيلاً، فالخذلان أن يكلك الله إلى نفسك ويخلى بينك وبينها، والتوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك.

الثاني: فرحك عند ظفرك بذلك الذنب، والفرح بالمعصية دليل على شدَّة الرغبة فيها، والجهل بقَدَر من عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها، ففرحه بها غطى عليه ذلك كله، وفرحه بها أشد ضرراً عليه من مواقعتها، فالمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبداً، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه، ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور، ومتى

خلا قلبه من هذا الحزن واشتدت غبطته وسروره بالمعصية فليتهم إيمانه وليبك على موت قلبه، فإنه لو كان حيّاً لأحزنه ارتكابه للذنب، وما لجرح بميت إيلام. وهذه النكتة في الذنب قلَّ من يهتدي إليها، وهي موضع مخوّف جداً إن لم يتدارك.

الثالث: الإصرار عليه مع تيقنك نظر الحق إليك، والإصرار: هو الاستقرار على المخالفة، والعزم على المعاودة، وذلك ذنب آخر لعله أعظم من الذنب الأول بكثير، وهذا من عقوبة الذنب، أنه يوجب ذنباً أكبر منه ثم الثاني كذلك ثم الثالث كذلك حتى يستحكم الهلاك.

فالإصرار على المعصية معصية أخرى، والقعود عن تدارك المعصية إصرار ورضاً بها وطمأنينةً إليها، وذلك علامة الهلاك، وأشد من هذا كله: المجاهرة بالذنب مع تيقن نظر الرب ﷻ من فوق عرشه إليه، فإن آمن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة فعظيم، وإن لم يؤمن بنظره إليه واطلاعه عليه فكفر وانسلاخ من الإسلام بالكلية.

شروط التوبة

وشرائط التوبة ثلاثة: الندم والإقلاع والاعتذار.

فحقيقة التوبة: هي الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل، فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خلق لها وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة.

فأما الندم: فإنه لا تتحقق التوبة إلا به، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به وإصراره عليه وفي المسند: «الندم توبة»[1].

وأما الإقلاع: فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب.

وأما الاعتذار: ففيه إظهار الضعف والمسكنة وغلبة العدو وقوة سلطان النفس، وأن يقول في قلبه ولسانه: لم يكن مني ما كان عن استهانة بحقك، ولا جهلاً به، ولا إنكاراً لإطلاعك، ولا استهانة بوعيدك، وإنما كان من غلبة الهوى وضعف القوة عن مقاومة الشهوة، وطمعاً في مغفرتك واتكالاً على عفوك، وحسن ظنٍ بك، ورجاءً لكرمك، وطمعاً في سعة حلمك ورحمتك، وغرني بك جهلي ولا سبيل إلى الاعتصام إلا بك، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك.

---

(١) صحيح الجامع الصغير.

ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف والتذلل والافتقار والاعتراف بالعجز والإقرار بالعبودية، فهذا من تمام التوبة، وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم ﷻ. والله يحب من عبده أن يتملق له.

حقائق التوبة

وحقائق التوبة: ما يتحقق به الشيء وتتبين به صحته وثبوته، وفيها: تعظيم الجناية واتهام التوبة.

فأما تعظيم الجناية: فعلى قدر تعظيمها يكون ندمه على ارتكابها، وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء: تعظيم الآمر وتعظيم الأمر والتصديق بالجزاء.

وأما اتهام التوبة: فلأنها حق عليه لا يتيقن أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه، فيخاف أنه ما وفَّاها حقها وأنها لم تقبل منه، وأنه لم يبذل جهده في صحتها، وأنها توبة علة وهو لا يشعر بها كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس، أو أنه تاب محافظة على حاله فتاب للحال لا خوفاً من ذي الجلال، أو أنه تاب طلباً للراحة من الكدِّ في تحصيل الذنب، أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه، أو لضعف داعي المعصية في قلبه وخمود نار شهوته، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق ونحو ذلك من العلل التي تقدح في كون التوبة خوفاً من الله وتعظيماً له ولحرماته وإجلالاً له، وخشية من سقوط المنزلة عنده، وعن الطرد عنه، والحجاب عن رؤية وجهه في الدار الآخرة، فهذه التوبة لون وتوبة أصحاب العلل لون.

ومن اتهام التوبة أيضاً: ضعف العزيمة، والتفات القلب إلى الذنب

الفينة بعد الفينة، وتذكر حلاوة مواقعته فربما تنفس وربما هاج هائجه.

ومن اتهام التوبة: طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب، حتى كأنه قد أعطي منشوراً بالأمان فهذا من علامات التهمة.

ومن علاماتها: جمود العين واستمرار الغفلة، وأن لا يستحدث بعد التوبة أعمالاً صالحة لم تكن له قبل الخطيئة.

علامات وموجبات قبول التوبة

والتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات:

منها: أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها.

ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحباً له فلا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه وتقطعه ندماً وخوفاً، وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠]، قال: «تقطعها بالتوبة». ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه وهذا هو تقطعه. فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرط حسرة وخوفاً؛ تقطَّع في الآخرة إذا حقّت الحقائق وعاين ثواب المطيعين وعقاب العاصين. فلا بد من تقطّع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضاً: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء ولا تكون لغير المذنب، ألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً كحالِ عبدٍ جانٍ آبق من سيده فأُخِذَ وأُحضِرَ بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته ولا منه مهرباً، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه

ونجاحه في رضاه عنه، هذا مع حبه لسيده وشدَّة حاجته إليه وعلمه بضعفه وعجزه وذلّه وقوة وعز سيده، فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات والانطراح بين يديه والاستسلام له.

فللَّه ما أحلى قوله في هذه الحال: «أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي وبغناك عني وفقري إليك هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذلَّ لك قلبه». وما عالج الصادق بشيء أشقَّ عليه من التوبة الخالصة الصادقة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

صولة العاملين أخطر من كبائر المذنبين

وأكثر الناس من المتنزهين عن الكبائر الحسِّية والقاذورات، يقعون في كبائر مثلها أو أعظم منها أو دونها، ولا يخطر بقلوبهم أنها ذنوب ليتوبوا منها، فعندهم من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم، وصولة طاعاتهم، ومنتِّهم على الخلق، وتوابع ذلك ما هو أبغض إلى الله وأبعد لهم عن بابه من كبائر أولئك، فإن تدارك الله أحدهم بقاذورة أو كبيرة يوقعه فيها ليكسر بها نفسه ويعرفه قدره ويذله بها ويخرج بها صولة الطاعة من قلبه فهي رحمة في حقه[1]، كما أنه إذا تدارك أصحاب الكبائر بتوبة نصوح وإقبال بقلوبهم إليه فهو رحمة في حقهم وإلا فكلاهما على خطر.

(١) من درر ابن القيم.

ليس من التوبة الاعتذار بالقدَر

لا عذر لأحد ألبتّة في معصية الله ومخالفة أمره مع علمه بذلك وتمكنه من الفعل والترك، ولو كان له عذرٌ لما استحق العقوبة واللّوم لا في الدنيا ولا في العقبى. فالاعتذار بالقدر يتضمن تنزيه الجاني نفسه، وهو الظالم الجاهل، ومن له أدنى فهم وبصيرة يعلم أن هذا كله تظلّم وشكاية وعتب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [يونس: ٦]، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: «كفور جحود لنعم الله». فتباً له ظالماً في صورةِ مظلومٍ، وشاكياً والجنايةُ منهُ.

يأخذُ الشفيقُ بحجزتهِ عن النارِ وهو يجاذبهُ ثوبهُ ويغلبهُ ويقتحمها، ويستغيثُ: ما حيلتي وقد قدموني إلى الحفيرة وقذفوني فيها، والله كم صاح به الناصح: الحذرَ الحذرَ، إياك إياك، وكم أراه مصارع المقتحمين وهو يأبى إلا الاقتحام.

يا ويله معاتباً لأقدار ربه، يحتجّ على ربه بما لا يقبله من عبدِه وامرأتِه وأمتِه في التهاون في بعض أمرهِ، فلو أمر أحدهم بأمر ففَّرط فيه أو نهاه عن شيء فارتكبه، وقال: «القدر ساقني إلى ذلك»، لما قبل منه هذه الحجة ولبادر إلى عقوبته، فإن كان القدرُ حجةً لك أيها الظالمُ الجاهلُ في ترك حق ربك فهلا كان حجةً لعبدِك وأمتِك في ترك بعضِ حقكَ، ثم تحتج على ربك به وتراه عذراً لنفسك، فمن أولى بالظلم والجهل ممن هذه حاله؟

هذا مع تواتر إحسان الله إليك على مدى الأنفاس، أزاح عللك ومكَّنك من التزود إلى جنته، فأعطاك السمع والبصر والفؤاد، وعرفك الخير والشر والنافع والضار، وأرسل إليك رسوله، وأنزل إليك كتابه، ويسره للذِّكر والفهم والعمل، وأعانك بمدد من جنده الكرام يثبتونك، ويحرسونك، ويحاربون عدوك ويطردونه عنك، ويريدون منك أن لا تميل إليه ولا تصالحه وهم يكفونك مؤونته، وأنت تأبى إلا مظاهرته عليهم وموالاته دونهم. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]. طرد إبليس عن سمائه وأخرجه من جنته وأبعده من قربه إذ لم يسجد لك، وأنت في صلب أبيك آدم لكرامتك عليه، ثم واليت عدوه وملت إليه وصالحته، وتتظلم مع ذلك وتشتكي الطرد والإبعاد، نعم وكيف لا يَطردُ من هذه معاملته؟ وكيف لا يُبعِدُ عنه من كان هذا وصفه؟ وكيف يجعل مِنْ خاصته وأهل قربه مَنْ حاله معه هكذا؟ قد أفسد ما بينه وبين الله وكدّره.

أمره الله بذكره ليذكِّره بإحسانه، فجعل نسيانه سبباً لنسيان الله له: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ﴾ [الحشر: ١٩]. أمره بسؤاله ليعطيه فلم يسأله، أعطاه أجلَّ العطايا بلا سؤال، يشكو من يرحمه إلى من لا يرحمه، ويتظلم ممن لا يظلمه، إن أنعم عليه بالصحة والعافية والمال والجاه استعان بنعمه على معاصيه، وإن سلبه ذلك ظلَّ متسخِّطاً على ربه وهو شاكيه، لا يصلح له على عافية ولا على ابتلاء.

دعاه إلى بابه فما وقف عليه ولا طرقه، ومع هذا فلم يؤيِّسه من رحمته، بل قال: متى جئتني قبلتك، وإن تقربت مني شبراً تقربت منك ذراعاً، وإن تقربت مني ذراعاً تقربت منك باعاً، وإن مشيت إليَّ هرولت إليك، ولو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً أتيتك

بقرابها مغفرة، ولو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، من أقبل إليَّ تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني ناديته من قريب، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد، ومن تصرَّف بحولي وقوتي ألنت له الحديد.

أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا إليَّ، فأنا حبيبهم فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين، إن لم يتوبوا إليَّ فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب، ومن آثرني على سواي آثرته على سواه، الحسنة عندي بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيئة عندي بواحدة فإن ندم عليها واستغفرني غفرتها له.

رحمتي سبقت غضبي، وحلمي سبق مؤاخذتي، وعفوي سبق عقوبتي. أنا أرحم بعبادي من الوالدة بولدها: «**لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللَّهُمَّ أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**»[1].

فهذا شأن الرب وشأن العبد، وهم يقيمون أعذار أنفسهم ويحمِّلون ذنوبهم على أقداره.

---

(١) صحيح الجامع الصغير (٥٠٣٠).

التوازن في فهم القدر

قالت عائشة رضي الله عنها: «ما خُيِّرَ رسولُ اللهِ ﷺ بين أمرين قطُّ إلا أخذَ أيسرَهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعدَ الناسِ منه، وما انتقم رسولُ اللهِ ﷺ لنفسِهِ في شيءٍ قطُّ إلا أن تُنْتَهَكَ حُرْمةُ اللهِ فينتقمَ لله بها»[1]. وقالت عائشة رضي الله عنها أيضاً: «ما رأيت رسول الله ﷺ ضربَ خادماً قطُّ ولا ضربَ امرأةً له قطُّ ولا ضرب بيدِه شيئاً قطُّ إلا أن يُجاهدَ في سبيلِ الله»[2].

فانظر إلى نظره ﷺ إلى القدر عند حقه، وقيامه بالأمر وقطع يد المرأة عند حق الله، ولم يقل هناك: القدر حكم عليها. وكذلك عزمه على تحريق المتخلفين عن الصلاة معه في الجماعة، ولم يقل: لو قضى لهم الصلاة لكانت. وكذلك رجمه المرأة والرجل لما زنيا ولم يحتج في ذلك لهما بالقدر، وكذلك فعله في العرنيّين الذين قتلوا راعيه واستاقوا الذود وكفروا بعد إسلامهم، ولم يقل قدّر عليهم، بل أمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف وسمرت أعينهم، وتركوا في الحرة يستسقون فلا يسقون حتى ماتوا عطشاً. وإلا فأنه يدخل في هذا عذر عباد الأصنام

---

(١) متفق عليه.

(٢) صحيح ابن حبان.

والأوثان، وقتلة الأنبياء، وفرعون وهامان ونمرود، وأبو جهل وأصحابه، وإبليس وجنوده.

ودفع القدر بالقدر **نوعان**:

أحدهما: دفع القدر الذي قد انعقدت أسبابه ولما يقع بأسباب أخرى من القدر تقابله فيمتنع وقوعه، كدفع العدو بقتاله، ودفع الحر والبرد ونحوه.

الثاني: دفع القدر الذي وقع واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله، كدفع قدر المرض بقدر التداوي، ودفع قدر الذنب بقدر التوبة، ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان، فهذا شأن العارفين وشأن الأقدار، لا الاستسلام لها، وترك الحركة والحيلة، فإنه عجز والله تعالى يلوم على العجز.

سرائر حقيقة التوبة

وسرائر حقيقة التوبة ثلاثة أشياء: تمييز التقية من العزة، ونسيان الجناية، والتوبة من التوبة.

وتمييز التقية من العزة: أن يكون المقصود من التوبة تقوى الله، وهو خوفه وخشيته والقيام بأمره واجتناب نهيه، فيعمل بطاعة الله على نور من الله، يرجو ثواب الله، ويترك معصية الله على نور من الله يخاف عقاب الله، لا يريد بذلك عزّ الطاعة، فإن للطاعة وللتوبة عزاً وظاهراً وباطناً، فلا يكون مقصوده العزة وإن علم أنها تحصل له بالطاعة والتوبة، فمن تاب لأجل العزة فتوبته مدخولة، وكثير من الصادقين قد يلتبس عليهم حال نفوسهم في ذلك ولا يميزه إلا أولو البصائر منهم.

وأما نسيان الجناية: فمنهم من رأى الاشتغال عن ذكر الذنب، فصفاء الوقت مع الله تعالى أولى بالتائب وأنفع له، ومنهم: من رأى أن الأولى أن لا ينسى ذنبه، بل لا يزال نصب عينيه ليحدث له ذلك انكساراً وذلاً وخضوعاً أنفع له من جمعيته وصفاء وقته.

والصواب: التفصيل في هذه المسألة وهو أن يقال: إذا أحس العبد من نفسه حال الصفاء غيماً من الدعوى ورقيقة من العجب ونسيان المنّة، وخطفته نفسه عن حقيقة فقره ونقصه، فذكر الذنب أنفع له، وإن كان في حال مشاهدته منّة الله عليه، وكمال افتقاره إليه، وفنائه به، وعدم استغنائه

عنه في ذرة من ذراته، وقد خالط قلبه حال المحبة والفرح بالله، والأنس به والشوق إلى لقائه، وشهود سعة رحمته وحلمه وعفوه، وقد أشرقت على قلبه أنوار الأسماء والصفات؛ فنسيان الجناية والإعراض عن الذنب أولى به وأنفع، فإنه متى رجع إلى ذكر الجناية توارى عنه ذلك ونزل من علو إلى أسفل. وهذا من حَسدِ الشيطان له، أراد أن يحطه عن مقامه، وسير قلبه في ميادين المعرفة والمحبة والشوق إلى وحشة الإساءة وحصر الجناية.

وأما التوبة من التوبة: فإن التوبة من أعظم الحسنات ولكن قد يكون في توبته علة ونقص وآفة تمنع كمالها، وقد يشعر صاحبها بذلك وقد لا يشعر به، فيتوب من نقصان التوبة وعدم توفيتها حقها.

معرفة عزّة الله ﷻ عند التوبة

فمن لطائف التوبة أن يعرف العبد عزّة الله في قضائه، وهو أنه سبحانه العزيز الذي يقضي بما يشاء، وأنه لكمال عزته حَكَم على العبد وقضى عليه بأن جعله مريداً شائياً، وهذا من كمال العزّة إذ لا يقدر على ذلك إلا الله ذو العزّة الباهرة، وهنا يعرف أنه مدَبَّر مقهور، ناصيته بيد غيره، لا عصمة له إلا بعصمته، ولا توفيق له إلا بمعونته، فهو ذليل حقير في قبضة عزيز حميد.

ومن شهود عزته: أن يشهد أن الكمال والحمد والغناء التام والعزة كلها لله، وكلما ازداد شهوده لذله ونقصه وعيبه وفقره، ازداد شهوده لعزة الله وكماله وحمده وغناه.

ومنها: أن يعرف بِرَّه سبحانه في ستره عليه حال ارتكاب المعصية مع كمال رؤيته له، ولو شاء لفضحه بين خلقه فَحَذِرُوه، وهذا من كمال برّه.

ومنها: شهود حلم الله ﷻ في إمهال راكب الخطيئة، ولو شاء لعاجله بالعقوبة، ولكنه الحليم الذي لا يعجل، فيحدث له ذلك معرفة ربه سبحانه باسمه (الحليم)، ومشاهدة صفة (الحلم)، والتعبد بهذا الاسم.

ومنها: معرفة العبد كرم ربه في قبول العذر منه إذا اعتذر إليه،

فيقبل عذره بكرمه وجوده، فيوجب له ذلك اشتغالاً بذكره وشكره ومحبة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك، فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك، وجازاك به، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها، أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده، والواقع شاهد بذلك، فعبودية التوبة بعد الذنب لون وهذا لون آخر.

ومنها: أن يشهد فضله في مغفرته فإن المغفرة فضل من الله، وإلا فلو أخذك بمحض حقه كان عادلاً محموداً، فيوجب لك ذلك أيضاً شكراً له ومحبة وإنابة إليه وفرحاً وابتهاجاً به، ومعرفة له باسمه (الغفار)، ومشاهدة لهذه الصفة وتعبداً بمقتضاها، وذلك أكمل في العبودية والمحبة والمعرفة.

ومنها: أن أسماءه الحسنى تقتضي آثارها اقتضاء الأسباب التامة لمسبباتها، فاسم (السميع البصير) يقتضي مسموعاً ومبصراً، واسم (الرزاق) يقتضي مرزوقاً، واسم (الرحيم) يقتضي مرحوماً، وكذلك أسماء الغفور والعفو والتواب والحليم يقتضي من يُغفَر له ويتوب عليه ويعفو عنه، إذ هي أسماءٌ حسنى، وصفاتُ كمالٍ، ونعوتُ جلالٍ، وأفعالُ حكمةٍ، وإحسانٌ وجودٌ، فلا بد من ظهور آثارها في العالم، وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب اللهُ بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفرُ لهم**»[1]. وإذا فرضت أن المعصية والخطيئة منتفية من العالم فلمن يغفر؟ وعمن يعفو؟ وعلى من يتوب ويحلم؟ فسبحان من تعرَّف إلى خلقه بجميع أنواع التعرفات! ودلهم عليه بأنواع الدلالات!

ومنها: السر الأعظم الذي شهدته قلوب خواص العباد فازدادت به معرفة لربها ومحبّة له، وطمأنينة به، وشوقاً إليه، ولهجاً بذكره، وشهوداً

(١) رواه مسلم.

لبرّه ولطفه وكرمه، وهو ما ثبت في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَلهُ أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوبُ إليهِ من أحدكم كان على راحلته، بأرضِ فلاةٍ، فانفلتت منه، وعليها طعامُهُ وشرابُهُ، فأيِسَ منها، فأَتَى شجرَةً، فاضطجعَ في ظِلِها، قد أَيِسَ من راحلتِهِ، فبينما هو كذلك، إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شِدَّةِ الفرَحِ: اللَّهُمَّ أنت عبدي، وأنا ربُّكَ، أخطَأَ من شدة الفرحِ**»[1].

(١) صحيح الجامع.

عظم رحمة الله بعبده وعظم فرحه بتوبته

فالمؤمن من نوع الإنسان هو خير البرية على الإطلاق وخيرة الله من العالمين، فإنه خلقه ليتم نعمته عليه، وليتواتر إحسانه إليه، وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته، ولم يخطر على باله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة العاجلة والآجلة، والتي لا تنال إلا بمحبته، ولا تنال محبته إلا بطاعته وإيثاره على ما سواه، فاتخذه محبوباً له، وأعدَّ له أفضل ما يعده محب غني قادر جواد لمحبوبه إذا قدم عليه.

وللمحبوب عدو هو أبغض خلقه إليه قد جاهره بالعداوة، واستقطع عباده واتخذ منهم حزباً كانوا أعداءً له مع هذا العدو يدعون إلى سخطه، ويطعنون في ربوبيته وإلهيته ووحدانيته، ويسبونه ويكذبونه، ويفتنون أولياءه ويؤذونهم بأنواع الأذى، فعرَّفه بهذا العدو وطرائقهم وأعمالهم وحذره موالاتهم والدخول في زمرتهم.

وأخبره أنه أجود الأجودين وأكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، وأنه سبقت رحمته غضبه، وحلمه عقوبته، وعفوه مؤاخذته، وأن الفضل كله بيده، والخير كله منه، والجود كله له، وأحب ما إليه أن يجود على عباده ويوسعهم فضلاً ويغمرهم إحساناً وجوداً، فجوده ومحبته للجود والإعطاء والإحسان والبر والإنعام والإفضال فوق ما يخطر ببال الخلق، وفرحه بعطائه وجوده وإفضاله أشد من فرح الآخذ بما يعطاه.

فإذا تعرض عبده ومحبوبه الذي خلقه لغضبه، وارتكب مساخطه وما يكرهه، وأَبِقَ منه ووالى عدوه وظاهره عليه وتحيّز إليه، وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه، وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام، فقد استدعى من الجواد الكريم خلاف ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر، وتعرض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه، وأن يصيِّر غضبه وسخطه في موضع رضاه، وانتقامه وعقوبته في موضع كرمه وبره وعطائه.

فبينما ذلك الحبيب مع العدو في طاعته وخدمته ناسياً لسيده منهمكاً في موافقة عدوه، إذ عرضت له فكرة فتذكر بر سيده وعطفه وجوده وكرمه، وعلم أنه لا بد له منه، وأن مصيره إليه، وأنه إن لم يقدم عليه بنفسه، قُدِمَ به عليه على أسوأ الأحوال، ففر إلى سيده من بلد عدوه وجدَّ في الهرب إليه حتى وصل إلى بابه، فوضع خده على عتبة بابه وتوسد ثرى أعتابه متذللاً متضرعاً خاشعاً باكياً آسفاً يتملق سيّده ويسترحمه ويستعطفه ويعتذر إليه، فعلم سيده ما في قلبه، فعاد مكان الغضب عليه رضاً عنه، ومكان الشدّة عليه رحمةً به، وأبدله بالعقوبة عفواً، وبالمنع عطاءً، وبالمؤاخذة حلماً، فاستدعى بالتوبة والرجوع من سيده ما هو أهله، وما هو موجب أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فكيف يكون فرح سيده به وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعاً واختياراً، وراجع ما يحبه سيده منه برضاه، وفتح طريق البر والإحسان والجود التي هي أحب إلى سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة.

وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين: «أنه رأى في بعض السكك بابا قد فتح وخرج منه صبي يستغيث ويبكي، وأمه خلفه تطرده حتى خرج فأغلقت الباب في وجهه ودخلت، فذهب الصبي غير بعيد ثم وقف مفكراً فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أخرج منه، ولا من يؤيه غير والدته، فرجع مكسور القلب حزيناً، فوجد الباب مرتجاً

فتوسده، ووضع خده على عتبة الباب ونام، فخرجت أمه فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه، والتزمته تقبله وتبكي، وتقول: يا ولدي أين تذهب عني؟ ومن يؤيك سواي؟ ألم أقل لك: لا تخالفني ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبلت عليه من الرحمة بك والشفقة عليك وإرادتي الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت».

فتأمل قوله ﷺ: «**للهُ أرحَمُ بعبادِهِ من هذه بولَدِها**»[1]. وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء؟ ووراء هذا ما تجفو عنه العبارة وتدق عن إدراكه الأذهان.

فما الظن بمحبوب لك تحبه حباً شديداً أسره عدوك وحال بينك وبينه، وأنت تعلم أن العدو سيسومه سوء العذاب ويعرضه لأنواع الهلاك، وأنت أولى به منه وهو غرسك وتربيتك، ثم إنه انفلت من عدوه ووافاك على غير ميعاد، فلم يفجأك إلا وهو على بابك، يتملقك ويترضاك ويستعينك، ويمرغ خديه على تراب أعتابك، فكيف يكون فرحك به، والله تعالى هو الذي أوجد عبده وخلقه وكوَّنه، وأسبغ عليه نعمه، فتضاف محبته لعبادته وطاعته والإنابة إليه إلى محبته لعداوة عدوه ومخالفته، فتشتد المحبة منه سبحانه مع حصول محبوبه، وهذه حقيقة الفرح.

---

(١) متفق عليه.

قيام حجة الله ﷻ قبل العقوبة

إن حجّة الله قامت على العبد بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، وبلوغ ذلك إليه، وتمكنه من العلم به، سواء علم أو جهل، فكل من تمكَّن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه، فقصَّر عنه ولم يعرفه فقد قامت عليه الحجة، والله سبحانه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجَّة عليه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]؛ أي: إنهم بعد أن أصلحوا وتابوا لم يكن ليهلكهم بما سلف منهم من الظلم، فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون، وإنما أهلكهم وهم ظالمون.

فأخبر سبحانه أن الناس قسمان: حيّ قابل للانتفاع يقبل الإنذار وينتفع به، ومَيْتٌ لا يقبل الإنذار ولا ينتفع به؛ لأن أرضه غير زاكية، فيحق عليه القول بالعذاب، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣].

وحاصل هذا كله: أن الله سبحانه أمر العباد أن يكونوا مع مراده الديني لا مع مراد أنفسهم، فأهل طاعته آثروا الله ومراده على مرادهم فاستحقوا كرامته، وأهل معصيته آثروا مرادهم على مراده فعاقبهم بظلمهم.

النظر إلى النفس الأمارة بالسوء

محل الجناية ومصدرها، وهو النفس الأمارة بالسوء، ويفيده نظره إليها أموراً، منها: أن يعرف أنها جاهلة ظالمة، وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح، فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع الذي يخرجها به عن وصف الجهل، والعمل الصالح الذي يخرجها به عن وصف الظلم، ومع هذا فجهلها أكثر من علمها، وظلمها أعظم من عدلها، فحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يقيه شرها، وأن يؤتيها تقواها ويزكيها، فهو خير من زكاها، فإنه ربها ومولاها، وأن لا يكله إليها طرفة عين، فإنه إن وكله إليها هلك، فما هلك من هلك إلا حيث وُكِلَ إلى نفسه، وفي خطبة الحاجة: «**ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا**»[1]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]

قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٨]. فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا في النفس ولا بها، ولكن هو الله الذي منَّ بهما، فجعل العبد بسببهما من الراشدين: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

---

(١) صححه الألباني واللفظ لابن ماجه ١/٦٠٩.

ومن له بصيرة بنفسه وبصيرة بحقوق الله وهو صادق في طلبه وفتش عن عيوب نفسه وعيوب عمله؛ علم أنها لا تصلح لله، وأن تلك البضاعة لا تشترى بها النجاة من عذاب الله، فضلاً عن الفوز بعظيم ثواب الله، فإن خلص له عمل مع الله شَاهَدَ مِنَّةَ الله عليه وفضله، وأنه ليس من نفسه ولا هي أهل لذاك، فهو دائماً مشاهد لِمِنَّة الله عليه ولعيوب نفسه وعمله، وهذا من أجلِّ أنواع المعارف وأنفعها للعبد. ولذلك كان سيد الاستغفار: «**اللَّهُمَّ أنت ربي لا إلٰه إلا أنت، خلقْتَني وأنا عبدُك، وأنا على عهدِك ووعدِك ما استطعتُ، أعوذ بك من شرِّ ما صنعتُ، أبوءُ بنعمتِك وأبوءُ بذنبي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»[1]. فأي حسنة تبقى للبصير الصادق مع مشاهدته عيوب نفسه وعمله ومِنَّة الله عليه، فهذا الذي يعطيه نظره إلى نفسه ونقصه.

(١) صحيح أبي داود.

النظرُ إلى الشيطانِ الآمرِ بالمعصيةِ وعقباتِه السبعِ

ويفيد العبد النظر إلى الآمر له بالمعصية، المزيِّن له فعلها، وهو شيطانه، اتخاذُه عدواً، وكمال الاحتراز والتحفظ واليقظة والانتباه لما يريد منه عدوه وهو لا يشعر، فإنه يريد أن يظفر به في عَقَبَة من سبع عقبات بعضها أصعب من بعض، لا ينزل منه من العقبة الشَّاقة إلى ما دونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها.

العقبة الأولى: عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه وبصفات كماله وبما أخبرت به رسله عنه، فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردت نار عداوته واستراح، فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية وسلم معه نور الإيمان، طلبه على العقبة الثانية.

العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة، إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله، وأنزل به كتابه، وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله من الأوضاع المحدثة في الدين التي لا يقبل الله منها شيئاً، والبدعتان في الغالب متلازمتان، قلَّ أن تنفك إحداهما عن الأخرى، فإن قطع هذه العقبة وخلص منها بنور السنة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة، وما مضى عليه السلف الأخيار من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهيهات أن تسمح الأعصار المتأخرة بواحد من هذا الضرب، فإن سمحت به، نصب

له أهل البدع الحبائل، وبَغَوْهُ الغوائل، وقالوا: مبتدعٌ مُحْدِثٌ، فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة طلبه على العقبة الثالثة.

العقبة الثالثة: وهي عقبة الكبائر، فإن ظفر به فيها زيَّنها له وحسَّنها في عينه، وقال له الإيمان هو نفس التصديق فلا تَقدحُ فيه الأعمالُ، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أُهلِك بها الخلق، وهي: «لا يضر مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشرك حسنة».

والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه من عقبة الكبائر لمناقضتها الدين، وصاحبها لا يتوب منها ولا يرجع عنها، بل يدعو الخلق إليها، ولتضمنها القول على الله بلا علم، والاجتهاد على إطفاء نور السنة ومعاداة أهلها، وتولية من عزله الله ورسوله، وعزل من ولاه الله ورسوله، وإثبات ما نفاه، ونفي ما أثبته، وتكذيب الصادق، وتصديق الكاذب، ومعارضة الحق بالباطل، وقلب الحقائق بجعل الحق باطلاً والباطل حقاً، وتعمية الحق على القلوب، وفتح باب تبديل الدين جملة. فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها حتى ينسلخ صاحبها من الدين، فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر، والعميان ضالون في ظلمة العمى، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله أو بتوبة نصوح تنجيه منها، طلبه على العقبة الرابعة.

العقبة الرابعة: وهي عقبة الصغائر. وقال: ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم، أوما علمت بأنها تُكَفَّر باجتناب الكبائر وبالحسنات، ولا يزال يهوِّن عليه أمرها حتى يصرّ عليها، فيكون أسوأ حالاً من مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم، فالإصرار على الذنب أقبح منه، ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار، وقد قال ﷺ: «**إيِّاكم ومُحقِّرَاتِ الذنوبِ، فإنما مَثَلُ مُحَقِّرَاتُ الذُّنُوبِ كَمَثَلِ**

قوم نزلوا بطنَ وادٍ، فجاء ذا بعودٍ وجاء ذا بعودٍ حتى حملوا ما أنضجوا به خُبْزَهم، وإن مُحَقِّراتِ الذُّنوبِ متى يُؤْخَذْ بها صاحِبُها تُهْلِكْه»[1].

فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ ودوام التوبة والاستغفار، وأتبع السيئة الحسنة، طلبه على العقبة الخامسة.

العقبة الخامسة: وهي عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها، فَشَغَلَهُ بها عن الاستكثار من الطاعات وعن الاجتهاد في التزوّد لمعاده، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى تركِ السنن، ثم مِنْ تركِ السنن إلى ترك الواجبات، وأقل ما ينال منه: تفويته الأرباح والمكاسب العظيمة والمنازل العالية.

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هاد، ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها، وكرم المشتري، فبخل بأوقاته وضنَّ بأنفاسه أن تذهب في غير ربح، طلبه العدو على العقبة السادسة.

العقبة السادسة: وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات، فأمره بها وحسَّنها في عينه وزينها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح ليشغله بها عما هو أفضل منها وأعظم كسباً وربحاً؛ لأنَّه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع في تخسيره كماله وفضله ودرجاته العالية، فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرضى له.

ولكن أين أصحاب هذه العقبة؟ فهم الأفراد في العالم والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأول.

فإن نجا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها والتمييز بين مفضولها وفاضلها، وسيدها

---

(١) صحيح الجامع الصغير (٢٦٨٦).

ومسودها، فإن في الأعمال والأقوال سيداً ومسوداً، وذروة وما دونها. ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم السائرين على جادَّة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها وأعطوا كل ذي حق حقه.

فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لا بد منها، ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه وأكرم الخلق عليه.

العقبة السابعة: وهي عقبة تسليط جند العدوِّ عليه بأنواع الأذى باليد واللسان والقلب على حسب مرتبته في الخير. فكلما علت مرتبته أجلب عليه العدوُّ بخيله ورَجِلِه وظَاهَرَ عليه بجنده، وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط، وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها؛ فإنَّه كلما جدَّ في الاستقامة والدعوة إلى الله والقيام له بأمره جدَّ العدوُّ في إغراء السفهاء به.

فهو في هذه العقبة قد لبس لْأَمَة الحرب، وأخذ في محاربة العدو لله وبالله، فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين وهي تسمى عبودية «المراغمة»، ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامَّة، ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليِّه لعدوه وإغاظته له، وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠]. وقال تعالى في مَثَل رسول الله ﷺ وأتباعه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٤٨]. فمن تعبد الله بمراغمة عدوه فقد أخذ من الصدِّيقية بسهم وافر، وعلى قدر محبَّة العبد لربه وموالاته ومعاداته لعدوه يكون نصيبه من هذه المراغمة، وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس، ومن ذاق طعمه ولذَّته بكى على أيامه الأول، وصاحب هذا المقام إذا نظر

إلى الشيطان ولاحظه في الذنب راغمه بالتوبة النصوح، فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى.

فهذه نبذة من بعض لطائف أسرار التوبة لعلك لا تظفر بها في مصنف آخر البتة ولله الحمد والمنَّة وبه التوفيق.

العقول السليمة والفطر القويمة تستقبح المعصية وتستحسن الفضيلة

والأفعال في نفسها حسنة وقبيحة، كما أنها نافعة وضاره، ولكن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب إلا بالأمر والنهي، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾؛ أي: لا يأمر بما هو فاحشة في العقول والفطر. وقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ دلَّ أنَّ وَصْف الطيب فيه مانع من تحريمه. ثم قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ فكساها بنهيه عنها قبحاً إلى قبحها، فكان قبحها من ذاتها، وازدادت قبحاً عند العقل بنهي الرب تعالى عنها وذمِّه لها وإخباره ببغضها وبغض فاعلها. وقال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١٠] فينبههم على ما في عقولهم وفطرهم من الحسن والقبيح، ويحتج عليهم بها.

وكم في القرآن من مَثَلٍ عقليٍّ وحسيٍّ ينبه به العقول على حسن ما أمر به وقبح ما نهى عنه، قال تعالى ممثلاً لقبح الرياء المبطل للعمل، والمنّ والأذى المبطل للصدقات بـ(صفوان)، وهو الحجر الأملس ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ مطر شديد فأزال ما عليه من التراب، ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ أملس لا شيء عليه. وهذا المثل في غاية المطابقة لمن فهمه،

وهذا يدل على أن قبح «المن والأذى والرياء» مستقر في العقول فلذلك نبهها على شبهه ومثاله.

وكذلك قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، فنبه سبحانه العقول على ما فيها من قبح الأعمال السيئة التي تحبط ثواب الحسنات وشبهها بحال شيخ كبير له ذرية ضعفاء بحيث يخشى عليهم الضيعة وعلى نفسه، وله بستان هو مادة عيشه وعيش ذريته، إذ أصابه نار شديدة فأحرقته، فنبه العقول على أن قبح المعاصي التي تغرق الطاعات كقبح هذه الحال، وبهذا فسرها عمر وابن عباس رضي الله عنهم: «لِرَجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله» ذكره البخاري في صحيحه[1].

(١) رواه البخاري (٤٢٦٤) في باب قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾.

عندما يورث الاستكثار من الطاعات غفلة

فالتوبة المدخولة المنقوصة من كانت توبتهم من استكثارهم لما يأتون به من الحسنات والطاعات ـ أي: رؤيتهم كثرتها ـ وذلك يتضمن **ثلاث مفاسد**:

المفسدة الأولى: أن حسناتهم التي يأتون بها سيئات بالنسبة إلى مقام المقربين، فهم محتاجون إلى التوبة من هذه الحسنات، فلغفلتهم باستكثارها عن عيوب أنفسهم، هم جاحدون نعمة الله في سترها عليهم وإمهالهم، وأهل الذنوب مقرّون بستره وإمهاله وهؤلاء جاحدون، فإذا أخذ نفسه بتخليصها من الشوائب وما في ذلك من شوك الرياء وشبرق الإعجاب والهمّ على الله بكليته، وجد له ثقلاً كالجبال وقلّ في عينه، ولكن إذا وجد حلاوته سهل عليه حمل أثقاله، والقيام بأعبائه، والتلذذ والتنعم به مع ثقله.

المفسدة الثانية: رؤية فاعلها أن له حقاً على الله في مجازاته على تلك الحسنات بالجنات والنعيم والرضوان، مع غفلته عن أعماله وأنه لن ينجو أحد ألبتّة من النار بعمله، إلا بعفو الله ورحمته.

الثالثة: استشعارهم الاستغناء عن مغفرة الله وعفوه بما يشهدون من استحقاق المغفرة والثواب بحسناتهم وطاعاتهم، فإنّ ظنهم أن حصول النجاة والثواب بطاعاتهم وكثرتها في عيونهم؛ إظهار للاستغناء

عن مغفرة الله وعفوه وذلك عين الجبروت والتوثّب على الله.

ولا ريب أن مجرد القيام بأعمال الجوارح من غير حضور ولا مراقبة ولا إقبال على الله قد يتضمن تلك المفاسد الثلاث وغيرها، مع أنه قليل المنفعة دنيا وأخرى، كثير المئونة، فإنه ـ وإن كثر ـ متعب غير مفيد، وإن الله لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها. وهكذا ينبغي أن يكون سائر الأعمال التي يؤمر بالحضور فيها والخشوع كالطواف وأعمال المناسك ونحوها.

ومن أورثته الطاعات جبروتاً وحجباً عن رؤيته عيوب نفسه وعمله وكثرت حسناته في عينه، فهو أبغض الخلق إلى الله تعالى وأبعدهم عن العبودية وأقربهم إلى الهلاك. واستقلال المعصية ذنب كما أن استكثار الطاعة ذنب، والعارف من صغرت حسناته في عينه وعظمت ذنوبه عنده. وكلما صغرت الحسنات في عينك كبرت عند الله، وكلما كبرت وعظمت في قلبك قلَّت وصغرت عند الله، وسيئاتك بالعكس، ومن عرف الله وحقه وما ينبغي لعظمته من العبودية: تلاشت حسناته عنده وصغرت جداً في عينه وعلم أنها ليست مما ينجو بها من عذابه، وليست بالذي يليق بعزته ويصلح له من العبودية.

أرفع مقامات المستغفرين

وهم من استكثر من الباقيات الصالحات، ومن مثل ما وصى به النبي ﷺ من سأله مرافقته في الجنة فقال: «**فأعنِّي على نفسِك بكثرةِ السُّجودِ**»[1]، ومن قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨] قال الحسن: «مَدّوا الصلاة إلى السحر ثم جلسوا يستغفرون». وقال النبي ﷺ: «**تابعوا بين الحجِ والعمرةِ، فإنهما ينفيانِ الفقرَ والذنوبَ، كما ينفى الكيرُ خَبَثَ الحديدِ والذهبِ والفضةِ**»[2]، وقال لمن سأله أن يوصيه بشيء يتشبث به: «**لا يزالُ لسانُكَ رطباٌ من ذكرِ اللهِ**»[3]. والدين كله استكثار من الطاعات وأحب خلق الله إليه: أعظمهم استكثاراً منها. وفي الحديث الصحيح الإلٰهي: «**وما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضتُهُ عليه، وما زالَ عَبدي يَتقَرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحببتُهُ كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ به، وبصرَهُ الذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ التي يبطشُ بها، ورِجْلَهُ التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينَّه، ولئِنِ استعاذني لأعِيذَنَّهُ**»[4]. وقال ﷺ لآخر: «**عليك بكثرةِ**

---

(١) صحيح مسلم، وصحيح أبي داود، وصحيح النسائي.

(٢) صحيح النسائي.

(٣) صحيح النسائي، وصحيح ابن ماجه.

(٤) السلسلة الصحيحة (١٨٣) للألباني.

السجودِ للهِ، فإنك لا تسجدُ لله سجدةً إلا رَفَعَك الله بها درجة وحطَّ عنك بها خطيئةً»[1].

وكلما استكثر منها استقلها واستصغرها؛ لأنه كلما استكثر منها فتحت له أبواب المعرفة بالله والقرب منه فشاهد قلبه من عظمته سبحانه وجلاله ما يستصغر معه جميع أعماله ولو كانت أعمال الثقلين، وإذا كثرت في عينه وعظمت دلَّ على أنه محجوب عن الله تعالى غير عارف به.

وفوق هذا مقام آخر من التوبة أرفع منه وأخص، لا يعرفه إلا الخواص المحبون الذين يستقلون في حق محبوبهم جميع أعمالهم وأحوالهم وأقوالهم، فلا يرونها قط إلا بعين النقص والإزراء عليها، ويرون شأن محبوبهم أعظم، وقدره أعلى من أن يرضوا نفوسهم وأعمالهم له، وإذا غفلوا عن مراد محبوبهم منهم ولم يوفوه حقه؛ تابوا إليه من ذلك توبة أرباب الكبائر منها، فالتوبة لا تفارقهم أبداً، وتوبتهم لون وتوبة غيرهم لون، وكلما ازدادوا حباً له ازدادوا معرفة بحقه وشهوداً لتقصيرهم، فعظمت لذلك توبتهم، وكان خوفهم أشد وإزراؤهم على أنفسهم أعظم. وما يتوب منه هؤلاء قد يكون من كبار حسنات غيرهم، فتوبة المحبين الصادقين العارفين بربهم وبحقه هي التوبة، وسواهم محجوب عنها، وهذا أمر لا يصح إلا لمن استولى عليه سلطان المحبة فامتلأ قلبه من الله محبة له وإجلالاً وتعظيماً وذلّاً وخضوعاً وانكساراً بين يديه وافتقاراً إليه.

والعبد سائر لا واقف، فإما إلى فوق وإما إلى أسفل، ما هو إلا مراحل تطوى إلى الجنة أو إلى النار، فمسرع ومبطئ، ومتقدم ومتأخر،

---

(١) صحيح مسلم.

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٥ ـ ٣٧] ولم يذكر واقفاً، فمن لم يتقدم إلى هذه الأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة.

أحكام التوبة

سنذكر نبذاً تتعلق بأحكام التوبة تشتد الحاجة إليها ولا يليق بالعبد جهلها.

حكم المبادرة إلى التوبة

المبادرة إلى التوبة من الذنب **فرض على الفور، ولا يجوز تأخيرها،** فمتى أخَّرها عصى بالتأخير فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى وهي توبته من تأخير التوبة، وقلَّ أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده: أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر.

ولا ينجي من هذا إلا توبة عامَّة مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم، فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه، ولا ينفعه جهله إذا كان متمكناً من العلم، فإنه عاصٍ بترك العلم والعمل، فالمعصية في حقه أشدّ، وفي الأدب المفرد أن معقل بن يسار قال: انطلقت مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقال: «**يا أبا بكرٍ، لَلشِّركُ فيكم أخفى من دبيب النَّملِ**»، فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلهاً آخر، قال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده للشِّركُ أخفى من دبيبِ النَّملِ، ألا أدُلّك على شيءٍ إذا فعلته ذهب عنك قليلهُ وكثيرهُ، قل: اللَّهُمَّ إني أعوذُ**

بك أن أشرِك بك وأنا أعلم، وأستغفِرُك لما لا أعلم»[1]، فهذا طلب الاستغفار مما يعلمه الله أنه ذنب ولا يعلمه العبد.

وفي «الصحيح» عنه ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «**ربِّ اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني، اللَّهُمَّ اغفر لي خطاياي وعمدي وجهلي وهزلي وكلُّ ذلك عندي، اللَّهُمَّ اغفر لي ما قدمت وما أخَّرْتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، أنت المقَدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، وأنت على كل شيءٍ قديرٌ**»[2]. وفي الحديث الآخر: «**اللَّهُمَّ اغفر لي ذنبي كُلَّه، دِقَّهُ وجِلَّهُ، وأوَّلَهُ وآخِرَه، وعلانِيَتَه وسِرَّه**»[3].

فهذا التعميم وهذا الشمول لتأتي التوبة على ما عَلِمَهُ العبد من ذنوبه وما لم يعلمه.

هل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؟

هل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؟ فيه قولان لأهل العلم، والمسألة مُشْكَلة ولها غَوْر، ويحتاج الجزم بأحد القولين إلى دليل يحصل به الجزم، وسر المسألة أن التوبة هل تتبعض كالمعصية فيكون تائباً من وجه دون وجه؟

والراجح: تبعضها، فإذا تاب من قتل النفس، وسرقة أموال المعصومين، وأكل أموال اليتامى، ولم يتب من شرب الخمر والفاحشة؛ صحت توبته مما تاب منه ولم يؤاخذ به، وبقي مؤاخَذاً بما هو مصر عليه.

والتوبة لا تصح من ذنب مع الإصرار على آخر من نوعه، فإذا تاب

---

(١) صححه الألباني في الأدب المفرد ١/ ٢٥٠.

(٢) صحيح البخاري (٥٩٤٨).

(٣) صفة صلاة النبي، رواه مسلم.

من شرب عصير العنب المسكر وهو مصر على شرب غيره من الأشربة المسكرة؛ فهذا في الحقيقة لم يتب من الذنب، وإنما عدل عن نوع منه إلى نوع آخر.

والله أعلم.

هل يشترط في صحة التوبة ألا يعود إلى الذنب أبداً؟

شرط البعض عدم معاودة الذنب، والأكثرون على أن ذلك ليس بشرط؛ وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم الجازم على ترك معاودته.

والمسألة مبنيّة على أصل وهو: أن العبد إذا تاب من الذنب ثم عاوده، فهل يعود إليه إثم الذنب الذي قد تاب منه ثم عاوده، بحيث يستحق العقوبة على الأول والآخر، أو لا يعود إليه إثمه وإنما يعاقب على هذا الأخير؟

وفي هذا الأصل **قولان**.

قالت طائفة: يعود إليه إثم الذنب الأول لفساد التوبة وبطلانها بالمعاودة.

واحتج الفريق الآخر وهم القائلون بأنه لا يعود إليه إثم الذنب الذي تاب منه بنقض التوبة، بأن ذلك الإثم قد ارتفع بالتوبة وصار كأنه لم يكن، ولا يشترط في صحة التوبة العصمة إلى الممات بل إذا ندم وأقلع وعزم على الترك: مُحي عنه إثم الذنب، فإذا استأنفه استأنف إثمه.

والتوبة من أكبر الحسنات فلو أبطلتها معاودة الذنب: لأبطلت غيرها من الحسنات، قال ﷺ: «**ما من عبدٍ مؤمنٍ إلا وله ذنبٌ يعتادُهُ الفينَةَ بعدَ الفينَة، أو ذنبٌ هو مقيمٌ عليه لا يفارِقُهُ حتى يفارق الدنيا، إنَّ**

المؤمنَ خُلِقَ مُفَتَّنَاً توَّابَاً نَسِياً، إذا ذُكِّرَ ذَكَرَ»[1]. قلت: وهو الذي كلما فتن بالذنب تاب منه، فلو كانت معاودته تبطل توبته لما كان محبوباً للرب، ولكان ذلك أدعى إلى مقته، وقد علق الله سبحانه قبول التوبة بالاستغفار وعدم الإصرار دون المعاودة، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]

وأما التوبة فهي عبادات متعددة بتعدد الذنوب، فكل ذنب له توبة تخصّه، فإذا ثبت هذا فمعاود الذنب: مبغوض لله من جهة معاودة الذنب، محبوب له من جهة توبته وحسناته السابقة، ولا يظلم مثقال ذرة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

هل تحبط الحسنات بالسيئات والسيئات بالحسنات؟

القرآن والسنة قد دلَّا على أن الحسنات تحبط السيئات كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال النبي ﷺ لمعاذ: **«اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»**.

وأما الإحباط: فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]. وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ قال: **«من ترك صلاةَ العصرِ فقد حبِطَ عَمَلُه»**[2].

---

(١) صحيح الجامع الصغير.

(٢) رواه البخاري.

وقد نص أحمد على هذا في رواية فقال: «**ينبغي للعبد أن يتزوج إذا خاف على نفسه فيستدين ويتزوج لا يقع في محظور فيحبط عمله**».

فإذا استقرت قاعدة الشريعة أن من السيئات ما يحبط الحسنات بالإجماع، ومنها ما يحبطها بالنص، فتصير التوبة كأنها لم تكن.

هل يدفع الراجح المرجوح من الحسنات والسيئات؟

إذا كانت الحسنات أرجح من السيئات بواحدة مثلاً، فهل يدفع الراجح المرجوح جملة فيثاب على الحسنات كلها، أو يسقط من الحسنات ما قابل السيئات فلا يثاب عليه ولا يعاقب على تلك السيئات، فيبقى القَدْرُ الزائد لا مقابل له فيثاب عليه وحده؟

قالوا: وقد دل القرآن والسنة وإجماع السلف على الموازنة، قال ابن مسعود: «يحاسب يوم القيامة فمن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ومن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة»، ثم قرأ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف: ٨، ٩]، ثم قال: «إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح» قال: «ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف».

هل تعود له حسناته التي استغرقتها سيئاته الحديثة بعد التوبة؟

وإذا استغرقت سيئاته الحديثات حسناته القديمات وأبطلتها ثم تاب منها توبةً نصوحاً خالصة: عادت إليه حسناته، يقال له: تبت على ما أسلفت من خير. فان الحسنات التي فعلها في الإسلام أعظم من الحسنات التي يفعلها الكافر في كفره: من عتاقة وصدقة وصلة، وقد قال حكيم بن حزام: «يا رسول الله أرأيت أشياءَ كنت أتحنَّثُ بها في

الجاهلية، من صدقةٍ، أو عتاقةٍ، وصلةِ رحم، فهل فيها من أجرٍ؟ فقال النبي ﷺ: **أسلمتَ على ما سلفَ من خيرٍ**»[1]. وذلك لأن الإساءة المتخللة بين الطاعتين قد ارتفعت بالتوبة، وصارت كأنها لم تكن فتلاقت الطاعتان واجتمعتا، والله أعلم.

هل تصح توبة العاصي
إذا حيل بينه وبين أسباب المعصية؟

ومن أحكام التوبة: أن العاصي إذا حيل بينه وبين أسباب المعصية وعجز عنها بحيث يتعذر وقوعها منه هل تصح توبته؟ وهذا كالكاذب والقاذف وشاهد الزور إذا قطع لسانه، والسارق إذا أُتِيَ على أطرافه الأربعة؟ ومن وصل إلى حد بطلت معه دواعيه إلى معصية كان يرتكبها؟

ففي هذا قولان للناس، فقالت طائفة: لا تصح توبته لأن التوبة إنما تكون ممن يمكنه الفعل والترك، ولأن التوبة هي الإقلاع عن الذنب.

والقول الثاني: وهو الصواب أن توبته صحيحة ممكنة بل واقعة، فإن أركان التوبة مجتمعة فيه والمقدور له منها الندم، وفي المسند مرفوعاً: «**الندمُ توبةٌ**»[2]، فإذا تحقق ندمه على الذنب ولومه نفسه عليه فهذه توبة، وكيف يصحّ أن تُسلبَ التوبة عنه مع شدَّة ندمه على الذنب، ولومه نفسه عليه، ولا سيما ما يتبع ذلك من بكائه وحزنه وخوفه وعزمه الجازم، ونيّته أنه لو كان صحيحاً والفعل مقدوراً له لما فعله؟ وإذا كان الشارع قد نزل العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها إذا صحت نيته، كقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**إذا مرض العبدُ أو سافر كَتب اللهُ تعالى له من الأجر مثلَ ما كان يعملُ صحيحاً مَقيماً**»[3]. وقال ﷺ: «**إنَّ**

---

(١) صحيح البخاري.
(٢) صححه الألباني في صحيح الجامع.
(٣) صحيح الجامع.

بالمدينة أقواماً ما سِرتم مَسِيراً، ولا أنفقتم من نفقةٍ، ولا قطعتُم وادياً، إلا كانوا معكم فيه، وهم بالمدينة، حبسهم العذر»[1].

فإذا كان يتمنى ويود لو واقع الذنب، ومن نيته أنه لو كان سليماً لباشره فتوبته بالإقلاع عن هذا التمني والحزن على فوته، والله أعلم.

ما معنى الآية

﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾؟

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٧، ١٨] و(الجهالة) ههنا: جهالة العمل وإن كان عالماً بالتحريم.

قال قتادة: «أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عصي الله به فهو جهالة، عمداً كان أو لم يكن».

وأما التوبة من قريب: فجمهور المفسرين: على أنها التوبة قبل المعاينة. قال الضحاك: قبل معاينة ملك الموت. وقال النبي ﷺ: **«إنَّ اللهَ تعالى يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغَرْغِرْ»**[2]. وقال ﷺ: **«إنَّ الشيطانَ قال: وعزَّتِك يا ربِّ لا أَبْرَحُ أُغوِي عبادَك ما دامَتْ أرواحُهُمْ في أجسادِهم، فقال الرب تبارك وتعالي: وعزَّتي وجلالي لا أزَالُ أَغفِرُ لهم ما استغفروني»**[3].

---

(١) صحيح الجامع.

(٢) صحيح الجامع.

(٣) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

إذا كان الذنب متعلقاً بحق آدمي، فهل يشترط تحلله منه؟

ومن أحكامها: أنها إذا كانت متضمنة لحق آدمي: أن يخرج التائب إليه منه إما بأدائه وإما باستحلاله منه بعد إعلامه به، وإن كان حقاً مالياً أو جنايةً على بدنه أو بدن موروثه، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**من كانت له مظلمةٌ لأحدٍ من عرضِه أو شيءٍ فليتحلله منه اليومَ قبل أن لا يكون دينارٌ ولا درهمٌ، إن كان له عملٌ صالحٌ أخذ منه بقدرِ مظلمتِه، وإن لم تكن له حسناتٌ أُخِذَ من سيئاتِ صاحبِه فحُمِل عليه**»[1].

وإن كانت المظلمة غيبةٌ أو قذفاً، فهل يشترط في توبته منها إعلامه بذلك بعينه والتحلل منه؟

لا يشترط الإعلام بما نال من عرضه وقذفه واغتيابه بل يكفي توبته بينه وبين الله، وأن يذكر المغتاب والمقذوف في مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة، فيبدل غيبته بمدحه والثناء عليه وذكر محاسنه، ويبدل قذفه بذكر عفته وإحصانه، ويستغفر له بقدر ما اغتابه، وهذا اختيار شيخنا أبي العباس ابن تيمية قدس الله روحه، واحتج أصحاب هذه المقالة بأن إعلامه مفسدة محضة لا تتضمن مصلحة، فإنه لا يزيده إلا أذىً وحنقاً وغماً، وقد كان مستريحاً قبل سماعه، فإذا سمعه ربما لم يصبر على حمله وأورثته ضرراً في نفسه أو بدنه، وربما كان إعلامه به سبباً لعداوة وبغضاء مولدة لشر أكبر من شر الغيبة والقذف، وهذا ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب والتراحم والتعاطف والتحابب.

والفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وجنايات الأبدان من وجهين: أحدهما أنه قد ينتفع بها إذا رجعت إليه فلا يجوز إخفاؤها عنه

---

(١) رواه البخاري في كتاب المظالم.

فإنه محض حقه، بخلاف الغيبة والقذف فإنه ليس هناك شيء ينفعه يؤديه إليه إلا إضراره وتهييجه فقط. والثاني أنه إذا أعلمه بها لم تؤذه ولم تهج منه غضباً ولا عداوة، بل ربما سرَّه ذلك وفرح به، بخلاف إعلامه بما مزق به عرضه طول عمره ليلاً ونهاراً، فاعتبار أحدهما بالآخر اعتبار فاسد.

وهذا هو الصحيح في القولين، والله أعلم.

هل يعود العبد بعد التوبة إلى ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة؟

ومن أحكامها: أن العبد إذا تاب من الذنب، فهل يرجع إلى ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة التي حطه عنها الذنب أو لا يرجع إليها؟ اختلف في ذلك.

فقالت طائفة: يرجع إلى درجته؛ لأن التوبة تجبُّ الذنب بالكلية وتصيرّه كأن لم يكن، ولأن التوبة حسنة عظيمة وعمل صالح، فإذا كان ذنبه قد حطه عن درجته فحسنته بالتوبة رقته إليها.

وقالت طائفة: لا يعود إلى درجته وحاله؛ لأنه لم يكن في وقوف وإنما كان في صعود فبالذنب صار في نزول وهبوط، فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذي كان مستعداً به للترقي.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يحكي هذا الخلاف ثم قال: «والصحيح أن من التائبين من لا يعود إلى درجته، ومنهم من يعود إليها، ومنهم من يعود إلى أعلى منها، فيصير خيراً مما كان قبل الذنب. وكان داوود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة». قال: «وهذا بحسب حال التائب بعد توبته وجده وعزمه وحذره وتشميره، فإن كان ذلك أعظم مما كان له قبل الذنب عاد خيراً مما كان وأعلى درجة، وإن كان مثله عاد إلى مثل

حاله، وإن كان دونه لم يعد إلى درجته وكان منحطاً عنها».

وهذا الذي ذكره هو فصل النزاع في هذه المسألة، ويتبين هذا **بمثلين مضروبين**:

أحدهما: رجل مسافر سائر على الطريق بطمأنينة وأمن، فهو يعدو مرة ويمشي أخرى ويستريح تارة وينام أخرى، فبينا هو كذلك إذ عُرض له في سيره ظل ظليل، وماء بارد، ومقيل، وروضة مزهرة، فدعته نفسه إلى النزول على تلك الأماكن، فنزل عليها فوثب عليه منها عدو فأخذه وقيده ومنعه عن السير، فعاين الهلاك، وظنَّ أنه منقطع به، وأنه رِزْقُ الوحوش والسباع، فبينا هو على ذلك تتقاذفه الظنون إذ وقف على رأسه والده الشفيق القادر فحل قيوده وقال له: اركب الطريق واحذر هذا العدو.

فإن كان هذا السائر فطناً لبيباً؛ استقبل سيره استقبالاً آخر أقوى من الأول وأتمّ، واشتد حذره وتأهب لهذا العدو، فكان سيره الثاني أقوى من الأول وخيراً منه، ووصوله إلى المنزل أسرع، وإن غفل عن عدوه وعاد إلى مثل حاله الأول من غير حذر ولا استعداد عاد كما كان، وإن أورثه ذلك توانياً في سيره وفتوراً، وتذكراً لطيب مقيله، وحسن ذلك الروض، وعذوبة مائه، وتفيؤ ظلاله، وسكوناً بقلبه إليه؛ لم يعد إلى مثل سيره، ونَقُصَ عمَّا كان.

وقد ضُرِبَ لذلك **مثلٌ آخر**: برجل خرج من بيته يريد الصلاة في الصف الأول، لا يلوي على شيء، فعرض له رجل من خلفه جبذ ثوبه وأوقفه قليلاً يريد تعويقه عن الصلاة؛ فله معه **حالان**:

أحدهما: أن يشتغل به حتى تفوته الصلاة، فهذه حال غير التائب.

الثاني: أن يجاذبه على نفسه ويتفلَّت منه لئلاً تفوته الصلاة، ثم له بعد هذا التفلّت **ثلاثة أحوال**:

أحدها: أن يكون سيره وثوباً ليستدرك ما فاته بتلك الوقفة فربما استدركه وزاد عليه.

الثاني: أن يعود إلى مثل سيره.

الثالث: أن تورثه تلك الوقفة فتوراً وتهاوناً؛ فيفوته فضيلة الصف الأول، أو فضيلة الجماعة وأول الوقت، فهكذا حال التائبين السائرين سواء.

هل المطيع الذي لم يعصِ خيرٌ من العاصي الذي تابَ إلى اللّه توبةً نصوحاً؟

اُخْتُلِفَ في ذلك، فطائفة رجحت من لم يعص على من عصى وتاب توبة نصوحاً واحتجوا **بوجوه**:

أحدها: أن في زمن اشتغال العاصي بمعصيته يسبقه المطيع عدة مراحل إلى فوق، فتكون درجته أعلى من درجته.

الثاني: أن الله يمقت على معاصيه ومخالفة أوامره، ففي مدة اشتغال هذا بالذنوب كان حظه المقت، وحظ المطيع الرضا، فإن الرضى المستمر خير من الذي تخلله المقت.

الثالث: أنَّ طمع العدو في هذا العاصي إنما كان لضعف علمه وضعف عزيمته.

الرابع: أن المعصية لا بد أن تؤثر أثراً سيئاً، إما هلاكاً كلياً، وإما نقص درجة، وإما خمود مصباح الإيمان.

وطائفة رجحت التائب وإن لم تنكر كون الأول أكثر حسنات منه واحتجت **بوجوه**:

أحدها: أن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله وأكرمها عليه، فإنه سبحانه يحب التوابين، ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه

لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه، فإن للتائبين عنده محبة خاصة، وللتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات، ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح، كما مثله النبي ﷺ بفرح الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدويّة المهلكة، بعدما فقدها وأيس من أسباب الحياة، ولم يجيء هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة، ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيراً عظيماً في حال التائب وقلبه لا يعبَّر عنه.

الوجه الثاني: أن عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار والخضوع والتملّق لله والتذلل له ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة، فإن الذل والانكسار روح العبودية ومخها ولبها، وحصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره، فإنه قد شارك من لم يذنب في ذل الفقر والعبودية والمحبة، وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمعصية، والله سبحانه أقرب ما يكون إلى عبده عند ذله وانكسار قلبه.

الوجه الثالث: أن الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة من كثير من الطاعات وهذا معنى قول بعض السلف: «قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة، ويعمل الطاعة فيدخل بها النار قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه إن قام وإن قعد وإن مشى ذكر ذنبه، فيحدث له انكساراً وتوبة واستغفاراً وندماً، فيكون ذلك سبب نجاته، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه إن قام وإن قعد وإن مشى كلما ذكرها أورثته عجباً وكبراً ومنَّةً، فتكون سبب هلاكه».

وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صولة وكبراً وازدراءً بالناس ورؤيتهم بعين الاحتقار، ولا ريب أن هذا الذنب خير عند الله وأقرب إلى النجاة والفوز من هذا المعجب بطاعته الصائل بها المانّ بها وبحاله على الله ﷻ وعباده، وإن قال بلسانه خلاف ذلك فالله شهيد على ما في قلبه.

فإذا أراد الله بهذا العبد خيراً ألقاه في ذنب يكسره به، ويعرفه قدره، ويكفي به عباده شره، وينكس به رأسه، ويستخرج به منه داء العجب والكبر والمنة عليه وعلى عباده، فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة، ويكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء العضال.

قال ﷺ: «**قال الله تعالى: يا ابن آدم إنَّك ما دعَوتَنِي ورجوتَنِي غفرت لك على ما كان فيكَ ولا أُبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبُكَ عنانَ السماءِ ثمَّ استغفرتَني غفرتُ لك ولا أُبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقرابِ الأرضِ خطايا ثمَّ لقيتَنِي لا تشركُ بي شيئاً لأتيتُكَ بقرابِها مغفرةً**»[1]. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

الوجه الرابع: وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠] وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح وهو حقيقة التوبة. قال سعيد بن المسيب وغيره من التابعين: «هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحس نات يوم القيامة فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة».

الوجه الخامس: أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه، وأكثر وأعظم نفعاً، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب، من ذل، وانكسار، وخشية، وإنابة، وندم، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه، وتأمل قوله ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ﴾ ولم يقل مكان كل واحدة واحدة.

---

(١) السلسلة الصحيحة.

فتبارك الله ربّ العالمين، وأجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، البر اللطيف، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع، لا إلٰه إلا هو الرحمٰن الرحيم.

هل حقيقة التوبة عدم المعاودة للذنب والإقلاع عنه؟

وكثير من الناس إنما يفسر التوبة بالعزم على أن لا يعاود الذنب، وبالإقلاع عنه في الحال، وبالندم عليه في الماضي، وإن كان في حق آدمي فالتحلل منه، وهذا الذي ذكروه بعض مسمى (التوبة)، وإلا فالتوبة في كلام الله ورسوله كما تتضمن ذلك؛ تتضمن العزم على فعل المأمور والتزامه، فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائباً حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور والإتيان به.

فحقيقة التوبة الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب وترك ما يكره، ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]. وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإنما يحب الله من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، إذاً «التوبة» هي: الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً، وتتناول جميع المقامات، ولهذا كانت غاية كل مؤمن وبداية الأمر وخاتمته.

وأكثر الناس لا يعرفون قدر «التوبة» ولا حقيقتها فضلاً عن القيام بها علماً وعملاً وحالاً، ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه، ولولا أن «التوبة» اسم جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم، فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل «التوبة» وآثارها.

أنواع الاستغفار

والاستغفار نوعان: مفرد، ومقرون بالتوبة.

فالمفرد: كقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠، ١١]، والمقرون: كقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

فالاستغفار المفرد كالتوبة بل هو التوبة بعينها مع تضمنه طلب المغفرة من الله، وهو محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره، وحقيقتها: وقاية شر الذنب، وهذا الاستغفار هو الذي يمنع العذاب في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] فإن الله لا يعذب مستغفراً، وأما من أصر على الذنب وطلب من الله مغفرته فهذا ليس باستغفار مطلق، وهذا لا يمنع العذاب.

فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق، وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله، فهاهنا ذنبان: ذنب قد مضى، فالاستغفار منه: طلب وقاية شره، وذنب يخاف وقوعه،

فالتوبة العزم على ألا يفعله، ولهذا جاء والله أعلم الأمر بهما مرتباً بقوله: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل.

حقيقة التوبة النصوح

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨] فجعل وقاية شر السيئات وزوال ما يكره العبد، ودخول الجنات وهو حصول ما يحب العبد منوطاً بحصول التوبة النصوح، والنصوح على وزن فعول قصداً للمبالغة كالشكور والصبور، والنصح في التوبة والعبادة والمشورة، تخليصها من كل غش ونقص وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه، والنصح ضد الغش.

قال عمر بن الخطاب وأُبي بن كعب رضي الله عنهما: «التوبة النصوح أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع»، وقال الحسن البصري: «هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى مجمعاً على أن لا يعود فيه»، وقال الكلبي: «أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن»، وقال محمد بن كعب القرظي: يجمعها أربعة أشياء: «الاستغفار باللسان والإقلاع بالأبدان وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيء الإخوان».

قلت: النصح في التوبة يتضمن **ثلاثة أشياء**:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بحيث لا يبقى عنده تردّد ولا تلوّم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله أو قوته وماله، أو لإفلاسه وعجزه ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله ﷻ.

فَنَصْحُ التوبة الصدق فيها والإخلاص، وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه وتمحو جميع الذنوب وهي أكمل ما يكون من التوبة.

والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب

قد جاء في كتاب الله تعالى ذكرهما مقترنين وذكر كلاً منهما منفرداً عن الآخر، فالمقترنان كقوله تعالى حاكياً عن عباده المؤمنين: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، والمنفرد في تكفير السيئات كقوله: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢]، وقوله في المغفرة: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

فهٰهنا أربعة أمور: ذنوب وسيئات ومغفرة وتكفير.

فالذنوب: المراد بها الكبائر، والمراد بالسيئات: الصغائر، والدليل على أن السيئات هي الصغائر، والتكفير لها: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]. ولفظ «المغفرة» أكمل من لفظ «التكفير» ولهذا كان مع الكبائر، والتكفير مع الصغائر، فإن لفظ «المغفرة» يتضمن الوقاية والحفظ، ولفظ «التكفير» يتضمن الستر والإزالة، وعند الإفراد يدخل كل منهما في الآخر، فقوله تعالى: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ يتناول صغائرها وكبائرها ومحوها ووقاية شرها، وكقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ [فاطر: ٣٠].

وإذا فُهم هذا، فُهم السر في الوعد على المصائب والهموم

والغموم والنصب والوصب بالتكفير دون المغفرة كقوله: فى الحديث الصحيح: «**ما يصيبُ المسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حُزْنٍ ولا أذىً ولا غمٍّ حتى الشوكةِ يشاكُها إلا كَفَّرَ اللهُ بها من خَطايَاهُ**»[1]، فإن المصائب لا تستقل بمغفرة الذنوب ولا تغفر الذنوب جميعها إلا بالتوبة، أو بحسنات تتضاءل وتتلاشى فيها الذنوب، فهى كالبحر لا يتغير بالجيف وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث.

فلأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهرون بها في الدنيا: نهر التوبة النصوح، ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها، ونهر المصائب العظيمة المكفرة. فإن لم تفِ بطهرهم طهّروا في نهر الجحيم يوم القيامة، فإذا أراد الله بعبده خيراً أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة فورد القيامة طيباً طاهراً فلم يحتج إلى التطهير الرابع.

(١) متفق عليه.

توبة العبد بين توبتين من الله ﷻ

وتوبة العبد إلى ربه محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها وتوبة منه بعدها، فتوبته بين توبتين من الله: سابقة ولاحقة؛ فإنه تاب عليه أولاً إذناً وتوفيقاً وإلهاماً، فتاب العبد، فتاب الله عليه ثانياً قبولاً وإثابةً، قال الله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨] فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم.

ونظير هذا: هدايته لعبده قبل الاهتداء، فيهتدي بهدايته، فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى، يثيبه الله بها هداية على هدايته، فإن من ثواب الهدى الهدى بعده، كما أن من عقوبة الضلالة الضلالة بعدها، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: ١٧] فهداهم أولاً فاهتدوا فزادهم هدى. وفي أهل الزيغ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥] فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم.

فهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه، كما قال أعرف الخلق به ﷺ: **«وأعوذ بك منك»**[1].

---

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وصححه الألباني.

فتوبة العبد: رجوعه إلى سيده بعد الإباق، وتوبة الله نوعان: إذنٌ وتوفيق، وقبولٌ وإمداد.

مبدأ التوبة ومنتهاها

والتوبة لها مبدأ ومنتهى **فمبدؤها**: الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم الذي نصبه لعباده موصلاً إلى رضوانه، وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. ونهايتها: الرجوع إليه في المعاد وسلوك صراطه الذي نصبه موصلاً إلى جنته، فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة رجع إليه في المعاد بالثواب، وهذا هو أحد التأويلات في قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١]. قال البغوي وغيره: «يتوب إلى الله متاباً: يعود إليه بعد الموت متاباً حسناً يفضل على غيره»، فالتوبة الأولى وهي قوله: ﴿وَمَن تَابَ﴾ رجوع عن الشرك، والثانية: رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة.

والتأويل الثاني: من عزم على التوبة وأرادها فليجعل توبته إلى الله وحده ولوجهه خالصاً لا لغيره.

التأويل الثالث: من تاب إلى الله قصداً ونيةً وعزماً فتوبته إلى الله عملاً وفعلاً، وهذا نظير قوله ﷺ: «**فمن كانت هجرتُه إلى اللهِ ورسولِهِ، فهجرتُه إلى اللهِ ورسولِهِ، ومن كانت هجرتُه إلى دنيا يُصيبُها أو امرأةٍ يتزوجُها فهجرتُه إلى ما هاجَر إليه**»[1].

---

(١) متفق عليه.

اللمم من الذنوب

والذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر بنص القرآن والسنة وإجماع السلف. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ [النجم: ٣٢]، وعن النبي ﷺ: أنه قال: «**الصلواتُ الخمسُ والجُمعةُ إلى الجُمعةِ ورمضانُ إلى رمضانَ مُكفِّراتٌ لما بينهنَّ إذا اجْتُنِبتْ الكبائِرَ**»(١).

ثم اختلف السلف في **فصلين**:

أحدهما: في اللمم ما هو؟

والثاني: في الكبائر، وهل لها عدد يحصرها أو حد يحدها؟

فأما اللمم: فقد روي عن جماعة من السلف أنه الإلمام بالذنب مرة ثم لا يعود إليه وإن كان كبيراً، قال البغوي: هذا قول أبي هريرة ومجاهد والحسن ورواية عطاء عن ابن عباس والجمهور على أن اللمم ما دون الكبائر، وقال الكلبي: «اللمم على وجهين كل ذنب لم يذكر الله عليه حداً في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة، فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس ما لم يبلغ الكبائر والفواحش، والوجه الآخر: هو الذنب العظيم يلمّ به المسلم المرة بعد المرة فيتوب منه». وقال سعيد بن المسيب: «هو ما ألمّ بالقلب؛ أي: ما خطر عليه».

---

(١) صحيح الجامع الصغير.

والصحيح: قول الجمهور: أن اللمم صغائر الذنوب، هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم، وهو قول أبي هريرة وعبد الله بن مسعود وابن عباس ومسروق والشعبي، ولا ينافي هذا قول أبي هريرة وابن عباس في الرواية الأخرى: «إنه يلمّ بالكبيرة ثم لا يعود إليها»، فإن «اللمم» إما أنه يتناول هذا وهذا كما قال الكلبي، أو أن أبا هريرة وابن عباس ألحقا من ارتكب الكبيرة مرة واحدة ولم يصرّ عليها بل حصلت منه فلتة في عمره باللمم، وإنما تتغلظ وتكبر وتعظم في حق من تكررت منه مراراً عديدة، وهذا من فقه الصحابة ﷺ وغور علومهم ولا ريب أن الله يسامح عبده المرة والمرتين والثلاث. وإنما يخاف على من اتخذ الذنب عادته وتكرر منه مراراً كثيرة.

ولا يكون محسناً مجزياً بإحسانه ناجياً من عذاب الله إلا من اجتنب كبائر الإثم والفواحش، فَحَسُنَ حينئذ استثناء اللمم، وإن لم يدخل في الكبائر فإنه داخل في جنس الإثم والفواحش.

الكبائر

وأما الكبائر: فاختلف السلف فيها اختلافاً لا يرجع إلى تباين وتضاد، وأقوالهم متقاربة، في الصحيح عن ابن مسعود ﷺ قال: «سألت رسول الله ﷺ: أيُّ الذنبِ أعظمُ عند اللهِ؟ قال: **أن تجعَلَ للهِ نِدّاً وهو خلَقَك**، قلتُ: إنَّ ذلك لعظيمٌ، ثم أيٌّ؟ قال: **ثم أن تقتُلَ ولدَك تخافُ أن يَطعَمَ معَك**، قلت: ثم أيٌّ؟ قال: **أن تُزانِيَ بحَليلةِ جارِك**»[1] فأنزل الله تعالى تصديق قول النبي ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ﴾ [الفرقان: ٦٨]. وفى «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**اجتنبوا السبعَ الموبقاتِ**، قالوا: يا رسولَ اللهِ، وما هنّ؟ قال: **الشركُ باللهِ، والسحرُ، وقتلُ النفسِ التي حرمَ اللهُ إلا بالحقِّ، وأكلُ الربا، وأكلُ مال اليتيم، والتولي يومَ الزحفِ، وقذفُ المحصناتِ المؤمناتِ الغافلاتِ**»[2]. وعن النبي ﷺ: قال: «**إنَّ من أربَى الرِّبا الاستطالةَ في عِرضِ المسلمِ بغيرِ حقٍ**»[3].

قال سعيد بن جبير: سأل رجل ابن عباس عن الكبائر «أسبع هنَ؟

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي.

(٢) صحيح البخاري (٦٨٥٧).

(٣) صحيح الجامع (٢٢٠٣).

قال: هنَ إلى السبعمائة أقرب إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار»، وقال علي بن أبي طلحة: «هي كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب». وقال الضحاك: «هي ما أوعد الله عليه حداً في الدنيا أو عذاباً في الآخرة».

وقيل: الكبائر ذنوب المستحلين، قلت: ما يفعله المستحل من الذنب أعظم عقوبة مما يفعله المعترف بالتحريم النادم على الذنب المستغفر منه.

وإذا أردت فهم هذا فانظر هل كان في الصحابة من يَقَدِّمُ على نص رسول الله ﷺ عقلاً أو قياساً أو ذوقاً أو سياسةً أو تقليد مقلد؟ ولقد حكم عمر بن الخطاب رضي الله عنه على من قدم حكمه على نص الرسول بالسيف وقال: «هذا حكمي فيه»، فيالله! كيف لو رأى ما رأينا وشاهد ما بلينا به من تقديم رأي كل فلان وفلان على قول المعصوم، ومعاداة من اطرح آراءهم وقدم عليها قول المعصوم؟ فالله المستعان وهو الموعد وإليه المرجع.

تحول الكبائر إلى صغائر والصغائر إلى كبائر

وقيل: الكبائر ما يستصغره العباد، والصغائر ما يستعظمونه فيخافون مواقعته. قلت: فإن أراد: أن استصغارهم للذنب يكبّره عند الله، واستعظامهم له يصغّره عند الله تعالى، فهذا صحيح، فإن العبد كلما صغرت ذنوبه عنده كبرت عند الله، وكلما كبرت عنده صغرت عند الله.

وهٰهنا أمر ينبغي التفطن له وهو أن «الكبيرة» قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر بل يجعلها في أعلى رتبها، وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب.

وقد روي عن جماعة من السلف: أن اللمم الإلمام بالذنب مرة ثم لا يعود إليه وإن كان كبيراً، قال البغوي: هذا قول أبي هريرة ومجاهد والحسن.

يعفى للمحب ما لا يعفى لغيره

ويعفى للمحب ولصاحب الإحسان العظيم ما لا يعفى لغيره ويسامح بما لا يسامح به غيره.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: «انظر إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه رمى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه بيده فكسرها، ولطم عين ملك الموت ففقأها، وربه تعالى يحتمل له ذلك ويحبه ويكرمه ويدلّله؛ لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة في مقابلة أعدى عدوّ له وصدع بأمره، وعالج أمتي القبط وبني إسرائيل أشدّ المعالجة، فكانت هذه الأمور كالشعرة في البحر».

وفرق بين من إذا أتى بذنب واحد ولم يكن له من الإحسان والمحاسن ما يشفع له، وبين من إذا أتى بذنب جاءت محاسنه بكل شفيع، كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله، قال تعالى عن ذي النون: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: ١٤٣، ١٤٤]. وفرعون لما لم تكن له سابقة خير تشفع له قال له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠]. عن النعمان بن بشير مرفوعاً: «**في التسبيحةِ والتحميدةِ والتهليلةِ يَتَعَاطَفْنَ حولَ العرشِ، لهنّ**

دويٌّ كدويِّ النحلِ، يُذْكَرْنَ بصاحِبِهِنَّ، ألا يحبُّ أحدُكُم أن لا يَزَالَ له عند الرحمٰنِ ما يُذْكَرُ به؟»[1].

(١) صححه الألباني في مختصر العلو.

نور الإيمان يبدد ضباب الذنوب

اعلم أن أشعة (لا إلٰه إلا الله) تبدّد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه، فلها نور وتفاوت أهلها في ذلك النور قوةً وضعفاً لا يحصيه إلا الله تعالى.

فمن الناس من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس.

ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري.

ومنهم من نورها في قلبه كالمشعل العظيم.

وآخر كالسراج المضيء وآخر كالسراج الضعيف.

ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بين أيديهم وبأيمانهم على هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة علماً وعملاً ومعرفةً وحالاً.

وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتدّ أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته، حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة ولا ذنباً إلا أحرقه، وهذا حال الصادق في توحيده الذي لم يشرك بالله شيئا فأي ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها، فسماء إيمانه قد حُرِسَت بالنجوم من كل سارق لحسناته، فلا ينال منها السارق إلا على غرة وغفلة لا بد منها للبشر، فإذا

استيقظ وعلم ما سُرِق منه استنقذه من سارقه أو حصّل أضعافه بكسبه، فهو هكذا أبداً مع لصوص الجن والإنس ليس كمن فتح لهم خزانته وولى الباب ظهره.

أثر التوحيد على الأعمال

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله، وأن الله رب كل شيء ومليكه؛ كما كان عبّاد الأصنام مقرّين بذلك وهم مشركون، بل التوحيد يتضمن من محبة الله والخضوع له والذلّ وكمال الانقياد لطاعته وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهة الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع والعطاء، والحب والبغض؛ ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها، ومن عرف هذا عرف قول النبي ﷺ: «**إنّ اللهَ تعالى قد حرّمَ على النّارِ من قال لا إلٰه إلا اللهُ، يبتغي بذلك وجْه اللهِ**»[1] وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث التي أشكلت على كثير من الناس، فلم يجعل ذلك ﷺ حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط، فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النّار، فلا بد من قول القلب وقول اللسان، وقول القلب يتضمن من معرفتها والتصديق بها، وقيام هذا المعنى بالقلب علماً ومعرفة ويقيناً وحالاً بما يوجب تحريم قائلها على النار.

وكل قول رتّب الشارع من الثواب فإنما هو القول التام، كقوله:

---

(١) صحيح الجامع الصغير.

«**من قال سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ مائةَ مرةٍ غُفِرَتْ له ذنوبُه ولو كانت مثلَ زبدِ البحرِ**»[1] وليس هذا مرتباً على مجرد قول اللسان. نعم من قالها بلسانه غافلاً عن معناها ولم يواطئ قلبه لسانه، ولا عرف قدرها وحقيقتها، راجياً مع ذلك ثوابها حطت من خطاياه بحسب ما في قلبه، فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة، وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض، والرجلان يكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض.

وتأمَّل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عن السير إلى القرية، وحملته وهو في تلك الحال على أن جعل ينوء بصدره، ويعالج سكرات الموت، ولا جرم أن أُلحِق بالقرية الصالحة وجُعِل من أهلها، وقريب من هذا ما قام بقلب البغيّ التي رأت ذلك الكلب وقد اشتدّ به العطش، يأكل الثرى مع عدم المعين وعدم من ترائيه بعملها، ما حملها على أن غررت بنفسها في نزول البئر حتى شرب من غير أن ترجو منه جزاءً ولا شكوراً، فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء فغفر لها، فهكذا الأعمال والعمّال عند الله، والغافل في غفلة من هذا الإكسير الكيماوي الذي إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهباً والله المستعان.

---

(١) صححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

المحب يسامَح بما لا يسامَح به غيره، ويعاقَب بما لا يعاقَب به غيره

فإن قيل: قد ذكرتم أن المحب يسامح بما لا يسامح به غيره، ويعطى للولي عما لا يعفى لسواه، فماذا تصنعون بالعقوبة المضاعفة التي ورد التهديد بها في حق أولئك إن وقع منهم ما يكره؟ كقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣، ٧٤]؛ أي: لولا تثبيتنا لك لقد كدت تركن إليهم بعض الشيء، ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة، وضعف عذاب الممات؛ أي: ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة، وقد أعاذه الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه ومن التقول عليه سبحانه.

فإن من كملت عليه نعمة الله، واختصه منها بما لم يختص به غيره، وحُبي بالإنعام، وخصّ بالإكرام، وخصّ بمزيد التقريب، وجُعل في منزلة الولي الحبيب، اقتضت حاله بأن يراعي مرتبته من أدنى مشوش وقاطع، فلشدة الاعتناء به ومزيد تقريبه واتخاذه لنفسه واصطفائه على غيره، تكون حقوق وليّه وسيّده عليه أتمّ ونعمه عليه أكمل، والمطلوب

منه فوق المطلوب من غيره، مع كونه يسامح بما لم يسامح به ذلك أيضاً فيجتمع في حقه الأمران، والواقع شاهد به، فإن الملك يسامح خاصته وأولياءه بما لم يسامح به من ليس في منزلتهم ويأخذهم ويؤدّبهم بما لم يأخذ به غيرهم.

فسبحان من بهرت حكمته في خلقه وأمره وجزائه عقول العالمين وشهدت بأنه أحكم الحاكمين.

للَّه سر تحت كل لطيفة   فأخو البصائر غائص يتملق

أجناس ما يتاب منه

وهى اثنا عشر جنساً، ولا يستحق العبد اسم «التائب» حتى يتخلص منها، مذكورة في كتاب الله ﷻ هي أجناس المحرمات: الكفر، والشرك، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والإثم، والعدوان، والفحشاء، والمنكر، والبغي، والقول على الله بلا علم، وإتباع غير سبيل المؤمنين.

فهذه الاثنا عشر جنساً عليها مدار كل ما حرم الله، وقد يكون في الرجل أكثرها وأقلها أو واحدة منها وقد يعلم ذلك وقد لا يعلم، والتوبة النصوح هي بالتخلص منها، والتحصّن والتحرّز من مواقعتها، وإنما يمكن التخلص منها لمن عرفها.

ونحن نذكرها ونذكر ما اجتمعت فيه وما افترقت، لتتبين حدودها وحقائقها، والله الموفق لما وراء ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله[1].

(١) قال ابن القيم ﵀ عن هذا الموضوع وما تبعه: «وهذا الفصل من أنفع فصول الكتاب والعبد أحوج شيء إليه».

أنواع الكفر

فأما (الكفر) فنوعان: كفر أكبر وكفر أصغر.

فالكفر الأكبر: هو الموجب للخلود في النار.

والأصغر: موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود، كما في قوله ﷺ: «**اثنتانِ في الناسِ هما بهم كفرٌ: الطعنُ في الأنسابِ، والنِّياحةُ على الميِّتِ**»[1]، وقوله: «**مَن أتى حائضاً أو امرأةً في دُبرِها فقد كَفَرَ بما أُنْزِلَ على محمدٍ**»[2]، وقوله: «**لا تَرجِعوا بعدي كفَّاراً يضربُ بعضُكم رقابَ بعضٍ**»[3]، وهذا تأويل ابن عباس وعامة الصحابة في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، قال ابن عباس: «ليس بكفر ينقل عن الملة، بل إذا فعله فهو به كفر وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر».

والقصد: أن المعاصي كلها من نوع الكفر الأصغر، فإنها ضد الشكر الذي هو العمل بالطاعة، والله أعلم.

---

(١) صحيح الجامع (١٣٨).

(٢) صححه الألباني في إرواء الغليل.

(٣) رواه البخاري.

أنواع الكفر الأكبر

وأما الكفر الأكبر فخمسة أنواع: كفر تكذيب وكفر استكبار وإباء مع التصديق وكفر إعراض وكفر شك وكفر نفاق.

فأما كفر التكذيب: فهو اعتقاد كذب الرسل، وهذا القسم قليل في الكفار فإن الله تعالى أيَّد رسله وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة وأزال به المعذرة، قال الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]

وأما كفر الإباء والاستكبار: فنحو كفر إبليس، فإنه لم يجحد أمر الله ولا قابله بالإنكار وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار، ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول وأنه جاء بالحق من عند الله ولم ينقد له إباءً واستكباراً، وهو الغالب على كفر أعداء الرسل كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧].

وأما كفر الإعراض: فأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول لا يصدقه ولا يكذبه ولا يواليه ولا يعاديه ولا يصغي إلى ما جاء به ألبتَّة.

وأما كفر الشك: فإنه لا يجزم بصدقه ولا بكذبه بل يشك في أمره، وهذا لا يستمر شكّه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ، وأما مع التفاته إليها ونظره فيها فإنه لا يبقى معه شك، فإن دلالتها على الصدق كدلالة الشمس على النهار.

وأما كفر النفاق: فهو أن يظهر بلسانه الإيمان وينطوي بقلبه على التكذيب، فهذا هو النفاق الأكبر وسيأتي بيان أقسامه إن شاء الله تعالى.

الحذر من الشرك الأكبر

وأما الشرك فهو نوعان: أكبر وأصغر.

فالأكبر: لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يتخذ من دون الله نداً يحبه كما يحب الله، وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين ولهذا قالوا لآلهتهم في النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق ولا تحيي ولا تميت، وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال أكثر مشركي العالم، بل كلهم يحبون معبوداتهم ويعظمونها ويوالونها من دون الله، ويغضبون لمنتقص معبوديهم وآلهتهم من المشايخ أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحدٌ ربَّ العالمين.

وترى أحدهم قد اتخذ ذكر إلهه ومعبوده من دون الله على لسانه ديدناً له، ويزعم أنه باب حاجته إلى الله وشفيعه عنده ووسيلته إليه، وإذا ذكرت له الله وحده وجردت توحيده لحقته وحشة وضيق وربما عاداك، وهكذا كان عباد الأصنام سواء، فأولئك كانت آلهتهم من الحجر، وغيرهم اتخذوها من البشر، قال الله تعالى حاكياً عن أسلاف هؤلاء المشركين: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٣]، ثم شهد

عليهم بالكفر والكذب وأخبر: أنه لا يهديهم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾.

و(الشفاعة) التي أثبتها الله ورسوله هي الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وحَّده، والتي نفاها الله هي الشفاعة الشركية التي في قلوب المشركين المتخذين من دون الله شفعاء، وتأمل قول النبي ﷺ لأبي هريرة وقد سأله: «من أسعَدُ الناسِ بشفاعتِك يومَ القيامةِ؟ فقال رسول الله ﷺ: **أسعدُ الناسِ بشفاعتي يومَ القيامةِ من قال: لا إلٰه إلا اللهُ، خالصاً من قِبَلَ نَفسِه**»[1]، فتأمل كيف جعل أعظم الأسباب التي تُنَال بها شفاعته: تجريد التوحيد.

(١) صحيح الترغيب والترهيب.

الشرك الأصغر

وأما الشرك الأصغر: كيسير الرياء والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»[1]، وقول الرجل للرجل: مالي إلا الله وأنت وأنا متوكل على الله وعليك ولولا أنت لم يكن كذا وكذا، وقد يكون هذا شركاً أكبر بحسب قائله ومقصده.

(١) صحيح أبي داود.

من أنواع الشرك

ومن أنواع الشرك: سجود المريد للشيخ فإنه شرك من الساجد والمسجود له، والعجب أنهم يقولون: ليس هذا سجود، وإنما هو وضع الرأس قدام الشيخ احتراماً وتواضعاً!

ومن أنواعه: ركوع المتعممين بعضهم لبعض عند الملاقاة، وهذا سجود في اللغة، وبه فُسِّرَ قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ [البقرة: ٥٨]؛ أي: منحنين وإلا فلا يمكن الدخول بالجبهة على الأرض.

ومن أنواعه: التوبة للشيخ فإنها شرك عظيم، فإن التوبة لا تكون إلا لله كالصلاة والصيام والحج والنسك، فهي خالص حق الله. فالتوبة عبادة لا تنبغي إلا لله كالسجود والصيام.

ومن أنواعه: النذر لغير الله فإنه شرك.

ومن أنواعه: الخوف من غير الله، والتوكل على غير الله، والعمل لغير الله، والإنابة والخضوع والذل لغير الله، وابتغاء الرزق من عند غيره، وحمد غيره على ما أعطى، والغنية بذلك عن حمده سبحانه، والذم والسخط على ما لم يقسمه ولم يجر به القدر، وإضافة نعمه إلى غيره.

ومن أنواعه: طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه

إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، فضلاً عمن استغاث به وسأله قضاء حاجته أو سأله أن يشفع له إلى الله، وهؤلاء هم أعداء الرسل والتوحيد في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم، وما نجا من الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله، واتخذ الله وحده وليّه وإلٰهه ومعبوده، فجرد حبّه لله وخوفه لله، ورجاءه لله وذلَّه لله، وتوكله على الله، واستعانته بالله، والتجاءه إلى الله، واستغاثته بالله، وأخلص قصده لله، متبعاً لأمره متطلباً لمرضاته، إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل لله فهو لله وبالله ومع الله.

والشرك أنواع كثيرة لا يحصيها إلا الله، ولو ذهبنا نذكر أنواعه لاتسع الكلام أعظم اتساع.

داء النفاق

وأما النفاق: فالداء العضال الباطن الذي يكون الرجل ممتلئاً منه وهو لا يشعر، فإنه أمر خفي على الناس وكثيراً ما يخفى على من تلبس به فيزعم أنه مصلح وهو مفسد.

وهو نوعان: أكبر وأصغر.

فالأكبر: يوجب الخلود في النار في دَرَكها الأسفل وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله، مكذب به.

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين وكشف أسرارهم في القرآن، وجلَّى لعباده أمورهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر، وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين والكفار والمنافقين. فذكر في المؤمنين أربع آيات، وفي الكفار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية، لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، فإن بليَّة الإسلام بهم شديدة جداً؛ لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاته وهم أعداؤه في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح وهو غاية الجهل والإفساد.

فللَّه كم من معقل للإسلام قد هدموه! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه! وكم من علم له قد طمسوه! وكم من لواء له مرفوع قد

وضعوه! وكم ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسه ليقلعوه! فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبليَّة، ولا يزال يطرقه من شبههم سَرِيَّة بعد سَرِيَّة، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢]

علامات المنافقين

لهم علامات يعرفون بها مبيَّنة في السنة والقرآن، بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان، قام بهم والله الرياء وهو أقبح مقام، وقعد بهم الكسل عما أُمِروا به من أوامر الرحمٰن، فأصبح الإخلاص عليهم لذلك ثقيلاً ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣].

ولقد هتك الله أستارهم وكشف أسرارهم وضرب لعباده أمثالهم، واعلم أنه كلما انقرض منهم طوائف خلفهم أمثالهم، فذكر أوصافهم لأوليائه ليكونوا منها على حذر، وبينها لهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦، ٢٨].

اتفقوا على مفارقة الوحي فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، لم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسوله ولم يرفعوا به رأساً، ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأساً، خلعوا نصوص الوحي وشنوا عليها غارات التأويلات الباطلة، فلا يزال يخرج عليها منهم كمين بعد كمين،

يعجب السامع قول أحدهم لحلاوته ولينه ويشهد الله على ما في قلبه، فتراه عند الحق نائماً وفي الباطل على الأقدام ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، أوامرهم التي يأمرون بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد، ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

فالظواهر ظواهر الأنصار، والبواطن قد تحيَّزت إلى الكفَّار، فألسنتهم ألسنة المسالمين، وقلوبهم قلوب المحاربين ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]، قد نهكت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، ففسادهم في الأرض كثير، وأكثر الناس عنه غافلون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

فأهل الإتباع عندهم سفهاء، فهم في خلواتهم ومجالسهم بهم يتطيرون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]، لكل منهم وجهان وجه يلقى به المؤمنين، ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، قد أعرضوا عن الكتاب والسُّنَّة استهزاءً بأهلهما واستحقاراً، وأَبَوْا أن ينقادوا لحكم الوحيين فرحاً بما عندهم من العلم ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾.

يتربصون الدوائر بأهل السُّنَّة والقرآن، فإن كان لهم فتح من الله قالوا: ألم نكن معكم؟ فيا من يريد معرفتهم، خذ صفتهم من كلام ربِّ

العالمين فلا تحتاج بعده دليلاً ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، فهم جنسٌ بعضه يشبه بعضاً يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه، وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه، ويبخلون بالمال في سبيل الله أن ينفقوه، كم ذكّرهم الله بنعمه فأعرضوا عن ذكره ونسوه، وكم كشف حالهم لعباده المؤمنين ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

إن حاكمتهم إلى صريح الوحي وجدتهم عنه نافرين، وإن دعوتهم إلى حكم كتاب الله وسُنَّة رسوله رأيتهم عنه معرضين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، تبّاً لهم ما أبعدهم عن حقيقة الإيمان! وما أكذب دعواهم في أتباع الرسول! ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢].

أحسن الناس أجساماً وأخلبهم لساناً وألطفهم بياناً وأخبثهم قلوباً وأضعفهم جناناً فهم كالخشب المسندة التي لا ثمر ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]، يؤخرون الصلاة عن وقتها وينقرونها نقر الغراب إذ هي صلاة الأبدان لا صلاة القلوب، ولا يشهدون الجماعة، وإذا خاصم فجر وإذا عاهد غدر وإذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان.

تسبق يمين أحدهم كلامه لعلمه أن قلوب أهل الإيمان لا تطمئن إليه، وكذلك أهل الريبة يكذبون ويحلفون ليحسب السامع أنهم صادقون

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢]، فما أجبرهم وهم الأذلّون! وما أجهلهم وهم المتعالمون! إن أصاب أهل الكتاب والسنة عافية ونصر وظهور ساءهم ذلك وغمّهم، وإن أصابهم ابتلاء من الله وامتحان يمحص به ذنوبهم ويكفر به عنهم سيئاتهم أفرحهم ذلك وسرهم ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ۝٥٠ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥٠، ٥١]، وقال تعالى: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، لقد أقسم الله ﷻ في كتابه بنفسه المقدسة قسماً عظيماً يعرف مضمونه أولو البصائر، فقلوبهم منه على حذر إجلالاً له وتعظيماً: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥].

لا تستطل أوصاف القوم فالمتروك والله أكثر من المذكور، كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم لكثرتهم على ظهر الأرض، فلا خلت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات وتتعطل بهم أسباب المعايش، سمع حذيفة رضي الله عنه رجلاً يقول: اللَّهُمَّ أهلك المنافقين، فقال: «يا ابن أخي لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قلة السالك».

تالله لقد قطع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين لعلمهم بدقه وجله، ساءت ظنونهم بنفوسهم حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين، قال عمر بن الخطاب لحذيفة رضي الله عنهما: «يا حذيفة نشدتّك بالله هل سمّاني لك رسول الله ﷺ منهم، قال: لا ولا أزكّي بعدك أحداً». وقال ابن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف

النفاق على نفسه». وعن الحسن البصري: «ما أمنه إلا منافق وما خافه إلا مؤمن»، ولقد ذكر عن بعض الصحابة: أنه كان يقول في دعائه «اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من خشوع النفاق، قيل وما خشوع النفاق، قال أن يرى البدن خاشعاً والقلب ليس بخاشع».

فهذه والله أمارات النفاق فاحذرها أيها الرجل، فلا تثق بعهودهم، ولا تطمئن إلى وعودهم، فإنهم فيها كاذبون وهم لما سواها مخالفون.

عقوبات المنافقين

فكيف إذا جُمِعُوا ليوم التلاق، وتجلى الله ﷻ للعباد، وقد كشف عن ساق، ودُعوا إلى السجود فلا يستطيعون ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٣]، أم كيف بهم إذا حشروا إلى جسر جهنم، وهو أدق من الشعرة وأحد من الحسام، وهو دحض مزلّة مظلم لا يقطعه أحد إلا بنور يبصر به، فقسمت بين الناس الأنوار وأُعطوا نوراً ظاهراً مع أهل الإسلام، فلما توسطوا الجسر عصفت على أنوارهم أهوية النفاق فأطفأت ما بأيديهم من المصابيح، ينادون وفد الإيمان ومشاعل الركب تلوح على بعد كالنجوم تبدو لناظر الإنسان ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ [الحديد: ١٣]، ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾، قالوا: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ﴾ نصوم كما تصومون، ونصلي كما تصلّون، ونقرأ كما تقرؤون، ونتصدق كما تصدَّقون، ونحج كما تحجّون؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ ولكنكم كانت ظواهركم معنا وبواطنكم مع كل ملحد وكل ظلوم كفور ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٤، ١٥].

أسروا سرائر النفاق فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم وفلتات اللسان، ووسمهم لأجلها بسيماء لا يخفون بها على أهل البصائر

والإيمان: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩، ٣٠].

كره الله طاعاتهم لخبث قلوبهم وفساد نياتهم فثبّطهم وأقعدهم، وأبغض قربهم منه لميلهم إلى أعدائه، فطردهم عنه وأشقاهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦]، ثم ذكر حكمته في تثبيطهم وإقعادهم وطردهم عن بابه وإبعادهم، وأن ذلك من لطفه بأوليائه وإسعادهم فقال وهو أحكم الحاكمين: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

الفسوق والعصيان

وأما الفسوق: فهو في كتاب الله نوعان مفرد مطلق ومقرون بالعصيان.

فالمقرون كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]. والمفرد الذي هو فسوق كفر كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩]. وأما الفسوق الذي لا يخرج عن الإسلام فكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ الآية [الحجرات: ٦][1].

والفسق أخص بارتكاب النهى ولهذا يطلق عليه كثيراً، والمعصية أخص بمخالفة الأمر، ويطلق كل منهما على صاحبه، هذا عند الإفراد، فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر والآخر لمخالفة النهي، و(التقوى) اتقاء مجموع الأمرين، وبتحقيقها تصح التوبة من الفسوق والعصيان، بأن يعمل العبد بطاعة الله، على نور من الله، يرجو ثواب الله، ويترك معصية الله، على نور من الله، يخاف عقاب الله.

---

(١) قال ابن القيم هنا: «وهٰهنا فائدة لطيفة وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة، وإنما أمر بالتبيّن».

وفسق الاعتقاد كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر، ويحرِّمون ما حرم الله، ويوجبون ما أوجب الله، ولكن ينفون كثيراً مما أثبت الله ورسوله جهلاً وتأويلاً وتقليداً للشيوخ، ويثبتون ما لم يثبته الله ورسوله كذلك، فالتوبة من هذا الفسوق بإثبات ما أثبته الله لنفسه ورسوله من غير تشبيه ولا تمثيل، وتنزيهه عما نزه نفسه عنه ونزهه عنه رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، وتلقى النفي والإثبات من مشكاة الوحي لا من آراء الرجال ونتائج أفكارهم التي هي منشأ البدعة والضلالة.

فتوبة هؤلاء الفساق من جهة الاعتقادات الفاسدة بمحض إتباع السُّنَّة، ولا يكتفى منهم بذلك أيضاً حتى يبينوا فساد ما كانوا عليه من البدعة، إذ التوبة من ذنب هي بفعل ضده، ولهذا شرط الله تعالى في توبة الكاتمين ما أنزل الله من البينات والهدى البيان؛ لأن ذنبهم لما كان بالكتمان كانت توبتهم منه بالبيان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾. وذنب المبتدع فوق ذنب الكاتم؛ لأن ذاك كتم الحق وهذا كتمه ودعا إلى خلافه فكل مبتدع كاتم ولا ينعكس.

الإثم والعدوان

وأما (الإثم والعدوان) فهما قرينان قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]، وكل منهما إذا أفرد تضمن الآخر، والإثم: ما كان محرم الجنس كالكذب والزنا وشرب الخمر ونحو ذلك، والعدوان: تعدى ما أبيح منه إلى القدر المحرم والزيادة كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه، إما بأن يتعدى على ماله أو بدنه أو عرضه، فإذا أتلف عليه شيئاً أتلف عليه أضعافه، وإذا قال فيه كلمة قال فيه أضعافها، فهذا كله عدوان وتعدّ للعدل.

وهذا العدوان نوعان: عدوان في حق الله وعدوان في حق العبد، فالعدوان في حق الله كما إذا تعدى ما أباح الله له من الوطء الحلال في الأزواج والمملوكات إلى ما حرم عليه من سواهما، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٧].

وكذلك كل من أبيح له منه قدر معين فتعداه إلى أكثر منه فهو من العدوان، كمن أبيح له نظرة الشهادة والمعاملة والمداواة، فأطلق عنان طرفه في ميادين محاسن المنظور، وأسام طرف ناظره في تلك الرياض والزهور، فتعدى المباح إلى القدر المحظور، وحام حول الحمى، فصار ذا بصر حائر، وقلب عن مكانه طائر، أرسل طرفه رائداً يأتيه بالخبر،

وبعث القلب في آثاره فلم يشعر إلا وهو أسير يحجل في قيوده، وما برحت تنوشه سيوف تلك الجفون حتى جندلته تجديلاً، هذا خطر العدوان، وما أمامه أعظم وأخطر، وما حُرِمَه من فوات ثواب من غض طرفه لله ﷻ أجلّ وأكبر، سافر الطرف في مفاوز محاسن المنظور إليه فلم يربح إلا أذى السفر، وغرر بنفسه في ركوب تلك البيداء وما عرف أن راكبها على أعظم الخطر، تالله ما استوت هذه الذلة وتلك اللذة في القيمة فيشتريها بها العارف الخبير.

ومن أمثلة العدوان: تجاوز ما أبيح من الميتة للضرورة إلى ما لم يبح منها، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]. وقال مسروق: من اضطر إلى الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل ولم يشرب حتى مات دخل النار.

الفحشاء والمنكر

وأما (الفحشاء والمنكر) فالفحشاء وهي الفعلة والخصلة الفحشاء، وهي ما ظهر قبحها لكل أحد، واستفحشه كل ذي عقل سليم، ولهذا فسرت بالزنا واللواط وسماها الله (فاحشة) لتناهي قبحهما.

والمنكر وهو الفعل الذي تستنكره العقول والفطر، ونسبته إليها كنسبة الرائحة القبيحة إلى حاسة الشم، والمنظر القبيح إلى العين، والطعم المستكره إلى الذوق، والصوت المستنكر إلى الأذن، فما اشتد إنكار العقول والفطر له فهو فاحشة.

ولذلك قال ابن عباس: «الفاحشة الزنا، والمنكر ما لم يُعْرف في شريعة ولا سُنَّة».

القول على الله بلا علم
أشد المحرمات تحريماً وأعظمها إثماً

وأما (القول على الله بلا علم) فهو أشد هذه المحرمات تحريماً وأعظمها إثماً، ولا تباح بحال بل لا تكون إلا محرمة، وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير الذي يباح في حال دون حال.

قال الله تعالى في المحرم لذاته: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، فقال ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. فهذا أعظم المحرمات عند الله، وأشدها إثماً، فإنه يتضمن الكذب على الله ونسبته إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ما أثبته وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه، وحبّ ما أبغضه وبغض ما أحبّه، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله.

فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه ولا أشد إثماً، وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع والضلالات، فكل بدعة

مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم، ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها، وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض، وحذروا فتنتهم أشد التحذير، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش والظلم والعدوان، إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد، وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شيء أو تحريمه من عنده بلا برهان من الله، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ الآية [النحل: ١١٦]، فكيف بمن نسب إلى أوصافه ﷻ مالم يصف به نفسه! أو نفى عنه منها ما وصف به نفسه!

وأصل الشرك والكفر: هو القول على الله بلا علم، فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبوداً من دون الله يقربه إلى الله، ويشفع له عنده ويقضى حاجته بواسطته، كما تكون الوسائط عند الملوك.

ولهذا كان الكذب على رسول الله ﷺ موجباً لدخول النار؛ لأنه متضمن للقول على الله بلا علم، كصريح الكذب عليه لأن ما انضاف إلى الرسول فهو مضاف إلى المُرسِل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾. فذنوب أهل البدع كلها داخلة تحت هذا الجنس، فلا تتحقق التوبة منه إلا بالتوبة من البدع، وتضلعه من السنة وكثرة اطلاعه عليها ودوام البحث عنها، ولا ترى صاحب بدعة كذلك أبداً.

إن السُّنَّة بالذات تمحق البدعة، وإذا طلعت شمسها في قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة، وأزالت ظلمة كل ضلالة، ولا يرى العبد الفرق بين السنة والبدعة ويعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السُّنَّة إلا المتابعة، والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله بالاستعانة والإخلاص، والهجرة إلى رسوله بالحرص على الوصول إلى أقواله

وأعماله وهديه وسنته، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن هاجر إلى غير ذلك فهو حظه ونصيبه في الدنيا والآخرة والله المستعان.

مشاهد الخلق في المعصية

ومشاهد الخلق في المعصية هي:

١ ـ مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة.

٢ ـ مشهد الحكمة.

٣ ـ مشهد التوفيق والخذلان.

٤ ـ مشهد الأسماء والصفات.

٥ ـ مشهد الإيمان وتعدد شواهده.

٦ ـ مشهد الرحمة.

٧ ـ مشهد العجز والضعف.

٨ ـ مشهد الذل والافتقار.

٩ ـ مشهد المحبة والعبودية.

فالأول للمنحرفين والبواقي لأهل الاستقامة، وأعلاها مشهد الرحمة.

وهذا الفصل من أجلّ فصول الكتاب وأنفعها لكل أحد، وهو حقيق بأن تثنى عليه الخناصر، ولعلك لا تظفر به في كتاب سواه.

مشهد الحيوانية

فأما مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة: فمشهد الجهّال الذين لا فرق بينهم وبين سائر الحيوان إلا في اعتدال القامة ونطق اللسان، ليس همّهم إلا مجرد نيل الشهوة بأي طريق أفضت إليها، فهؤلاء نفوسهم نفوس حيوانية لم تترقَ عنها إلى درجة الإنسانية، فضلاً عن درجة الملائكة، فهؤلاء حالهم أخسّ من أن تُذْكَر، وهم في أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التي هم على أخلاقها وطباعها.

فمنهم من نفسه كلبيّة لو صادف جيفة تُشبِع ألف كلب لوقع عليها وحماها من سائر الكلاب، ونَبَح كل كلب يدنو منها، فلا تقربها الكلاب إلا على كُره منه وغَلبة، وهمّه شِبَعَ بطنه من أي طعام اتفق: خبيثاً أو طيباً.

ومنهم من نفسه حِماريّة لم تُخلق إلا للكد والعلف، كلما زيد في علفه زيد في كدّه، أبكم الحيوان، وأقله بصيرة، ولهذا مثّل الله ﷻ به من حمّله كتابه، فلم يحمله معرفةً ولا فقهاً ولا عملاً، ومُثِّل بالكلب عالم السوء الذي آتاه الله آياته، فانسلخ منها وأخلد إلى الأرض واتبع هواه، وفي هذين المثلين أسرار عظيمة.

ومنهم من نفسه سبعيّة غضبيّة، همتّه العدوان على الناس وقهرهم بما وصلت إليه قدرته.

ومنهم من نفسه فأريّة، فاسق بطبعه مفسد لما جاوره.

ومنهم من نفسه على نفوس ذوات السموم والحمّات، كالحيّة والعقرب وغيرهما، وهذا الضرب هو الذي يؤذي بعينه فيدخل الرجل القبر والجمل القدر، والعين وحدها لم تفعل شيئاً وإنما النفس الخبيثة السميّة تكيّفت بكيفية غضبيّة، مع شدّة حسد وإعجاب، وقابلت المعين على غرة منه وغفلة وهو أعزل من سلاحه فلدغته كالحية التي تنظر إلى موضع مكشوف من بدن الإنسان فتنهشه. فالعائن لا يؤثر في شاكي السلاح كالحية إذا قابلت درعاً سابغاً على جميع البدن، ليس فيه موضع مكشوف، فحق على من أراد حفظ نفسه وحمايتها: أن لا يزال متدرّعاً متحصناً مواظباً على أوراد التعوّذات والتحصينات النبوية التي في القرآن والسنة.

وهذا هو تأويل سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وعلى هذا الشبه اعتماد أهل التعبير للرؤيا في رؤية هذه الحيوانات في المنام، وقد رأى النبي ﷺ في قصة أُحُد «بقراً تُنحر»[1] فكان من أصيب من المؤمنين بنحر الكفار، فإن البقر أنفع الحيوانات للأرض، وبها صلاحها وفلاحها، مع ما فيها من السكينة والمنافع والذِل، فإنها ذلول مذللة منقادة غير أبيّة.

ومن الناس من طبعه طبع خنزير يمر بالطيبات فلا يلوى عليها، وهكذا كثير من الناس يسمع منك ويرى من المحاسن أضعاف أضعاف المساوئ، فلا يحفظها ولا ينقلها ولا تناسبه، فإذا رأى سقطة أو كلمة عوراء وجد بغيته وما يناسبها فجعلها فاكهته ونقله.

---

(١) صحيح الجامع الصغير.

ومنهم من هو على طبيعة الطاووس ليس له إلا التطوّس والتزين بالريش وليس وراء ذلك من شيء.

ومنهم من هو على طبيعة الجمل أحقد الحيوان وأغلظه كبداً.

ومنهم من هو على طبيعة الدب أبكم خبيث.

وأحمد طبائع الحيوانات طبائع الخيل التي هي أشرف الحيوانات نفوساً، وأكرمهاً طبعاً، وكذلك الغنم، وكل من أَلِف ضرباً من ضروب هذه الحيوانات اكتسب من طبعه وخلقه.

والمقصود أن أصحاب هذا المشهد ليس لهم شهود سوى ميل نفوسهم وشهواتهم، لا يعرفون ما وراء ذلك ألبتّة.

مشهد الحكمة

وهو أحد مشاهد أهل الاستقامة، وهو مشهد حكمة الله في تقديره على عبده، وأنه لو شاء لعصمه منه ولحال بينه وبينه، وأنه سبحانه لا يُعصى قسراً، وأنه لا يكون في العالم شيء إلا بمشيئته: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وأن له الحكمة البالغة في كل ما قدره وقضاه من خير وشر، وطاعة ومعصية، وحكمة باهرة تعجز العقول عن الإحاطة بكنهها وتكلّ الألسن عن التعبير عنها.

قال تعالى لملائكته لما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ﴾ فأجابهم سبحانه بقوله ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. فلله سبحانه في ظهور المعاصي والذنوب والجرائم وترتب آثارها من الآيات والحكم، ودلائل ربوبيته ووحدانيته وإلهيته وحكمته وعزته وتمام ملكه وكمال قدرته وإحاطة علمه ما يشهده أولو البصائر عياناً ببصائر قلوبهم، فيقولون: ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]، إن هي إلا حكمتك الباهرة وآياتك الظاهرة.

فكم من آية في الأرض بيّنة، دالّة على الله وعلى صدق رسله، وعلى أن لقاءه حق كان سببها معاصي بني آدم وذنوبهم، كآيته في إغراق قوم نوح، وعلو الماء على رؤوس الجبال حتى أغرق جميع أهل الأرض ونجى أولياءه وأهل معرفته وتوحيده، فكم في ذلك من آية وعبرة ودلالة

باقية على ممر الدهور، وكم له من آية في فرعون وقومه من حين بعث موسى عليه السلام إليهم، بل قبل مبعثه إلى حين إغراقهم، فلولا معاصيهم وكفرهم لم تظهر تلك الآيات والعجائب.

وكذلك اتخاذ الله تعالى الشهداء والأولياء والأصفياء من بني آدم؛ بسبب صبرهم على أذى بني آدم من أهل المعاصي والظلم ومجاهدتهم في الله، وتحمّلهم لأجله من أعدائه ما هو بعينه وعلمه واستحقاقهم بذلك رفعة الدرجات، إلى غير ذلك من المصالح والحكم التي وجدت بسبب ظهور المعاصي والجرائم، فحصول هذا المحبوب العظيم أحب إليه من فوات ذلك المبغوض المسخوط، وحصول هذا المحبوب الذي لم يكن يحصل بدون وجود ذلك المبغوض، وكمال حكمته ألا يعطل هذا الأحب بتعطيل ذلك المكروه.

ويكفي من هذا مثال واحد وهو أنه لولا المعصية من أبي البشر بأكله من الشجرة، لما ترتب على ذلك ما ترتب من وجود هذه المحبوبات العظام للرب تعالى من امتحان خلقه وتكليفهم، وإرسال رسله، وإنزال كتبه، وإظهار آياته وعجائبه وتنويعها وتصريفها، وإكرام أوليائه وإهانة أعدائه، وظهور عدله وفضله وعزته وانتقامه وعفوه ومغفرته وصفحه وحلمه، وظهور من يعبده ويحبه ويقوم بمراضيه بين أعدائه في دار الابتلاء والامتحان، وكم في تسليط أوليائه على أعدائه وتسليط أعدائه على أوليائه، والجمع بينهما في دار واحدة، وابتلاء بعضهم ببعض من حكمة بالغة ونعمة سابغة، وكم فيها من حصول محبوب للرب وحمد له من أهل سماواته وأرضه، وخضوع له وتذلل، وخشية، وافتقار إليه، وانكسار بين يديه، أن لا يجعلهم من أعدائه، إذ هم يشاهدونهم ويشاهدون خذلان الله لهم وإعراضه عنهم، ومقته لهم، وما أعد لهم من العذاب.

فإذا رأت الملائكة إبليس وما جرى له، وضعت رؤوسها بين يدي الرب خضوعا لعظمته واستكانه لعزته، وخشية من إبعاده وطرده، وتذللاً لهيبته وافتقاراً إلى عصمته ورحمته، وعلمت بذلك منَّته عليهم، وإحسانه إليهم، وتخصيصه لهم بفضله وكرامته، وكذلك أولياؤه المتقون إذا شاهدوا أحوال أعدائه ومقته لهم، وغضبه عليهم وخذلانه لهم، ازدادوا خضوعاً وذلاً وافتقاراً وانكساراً، وبه استعانةً وإليه إنابةً وعليه توكلاً، وفيه رغبةً ومنه رهبةً، وعلموا أنهم لا ملجأ لهم منه إلا إليه، وأنهم لا يعيذهم من بأسه إلا هو، ولا ينجيهم من سخطهم إلا مرضاته، فالفضل بيده أولاً وآخراً.

وهذه قطرة من بحر حكمته المحيطة بخلقه، والبصير يطالع ببصيرته ما وراءه، فيطلعه على عجائب من حكمته لا تبلغها العبارة ولا تنالها الصفة، وكل مؤمن له من ذلك شربٌ معلوم، ومقام لا يتعداه ولا يتخطاه والله الموفق.

مشهد التوحيد

وهو أن يشهد انفراد الرب تبارك وتعالى بالخلق والحكم، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، وأن الخلق مقهورون تحت قبضته، وأنه ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابعه؛ إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه، وأنه هو الذي آتى نفوس المؤمنين تقواها، وهو الذي هداها وزكاها، وألهم نفوس الفجار فجورها وأشقاها، من يهدِ الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، يهدي من يشاء بفضله ورحمته، ويضلّ من يشاء بعدله وحكمته، هذا فضله وعطاؤه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وفي هذا المشهد يتحقق للعبد مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ علماً وحالاً، فإنه إذا تيقن أن الضر والنفع، والعطاء والمنع، والهدى والضلال، والسعادة والشقاء، كل ذلك بيد الله لا بيد غيره وأنه الذي يُقَلِّبُ القلوب ويصرفها كيف يشاء، وأنه لا موفق إلا من وفّقه وأعانه، ولا مخذول إلا من خذله وأهانه وتخلى عنه، وأن أصحّ القلوب وأسلمها، وأقومها وأرقها وأصفاها، وأشدها وألينها، من اتخذه وحده إلهاً ومعبوداً، فكان أحبّ إليه من كل ما سواه، وأخوف عنده من كل ما سواه، وأرجى له من كل ما سواه، فتتقدم محبته في قلبه جميع

المحابّ، فتنساق المحابّ تبعاً لها، ويتقدم خوفه في قلبه جميع المُخَوِّفات، ويتقدم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء.

والمقصود: أن العبد يحصل له هذا في المشهد من مطالعة الجنايات والذنوب وجريانها عليه وعلى الخليقة بتقدير العزيز الحكيم، وأنه لا عاصم من غضبه وأسباب سخطه إلا هو، ولا سبيل إلى طاعته إلا بمعونته، ولا وصول إلى مرضاته إلا بتوفيقه، فموارد الأمور كلها منه، ومصادرها إليه، وأزِمَّة التوفيق جميعها بيديه، فلا مُستعان للعباد إلا به، ولا مُتَّكَلٌ إلا عليه، كما قال شعيب خطيب الأنبياء: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

مشهد التوفيق والخذلان

«التوفيق» هو ألا يكلك الله إلى نفسك، و«الخذلان» هو أن يخلى بينك وبين نفسك، فالعبيد متقلّبون بين توفيقه وخذلانه، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا، فيطيعه ويرضيه ويذكره ويشكره بتوفيقه له، ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له، فهو دائر بين توفيقه وخذلانه، فإن وفّقه فبفضله ورحمته، وإن خذله فبعدله وحكمته، وهو المحمود على هذا وهذا، له أتم حمد وأكمله، ولم يمنع العبد شيئاً هو له، وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله.

فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقّه، علم شدّة ضرورته وحاجته إلى التوفيق في كلِّ نَفَسٍ وكل طرفة عين، وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى، لو تخلى عنه طرفة عين لخرت سماء إيمانه على الأرض، وأن الممسك له هو من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، فيسأله توفيقه مسألة المضطرّ، ويعوذ به من خذلانه عياذ الملهوف، ويلقي نفسه بين يديه طريحاً ببابه مستسلماً له، ناكس الرأس بين يديه خاضعاً ذليلاً مستكيناً لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ونشوراً.

و«التوفيق» إرادة الله أن يفعل بعبده ما يصلح به، بأن يجعله قادراً على فعل ما يرضيه، مريداً له محباً له مؤثراً له على غيره، ويُبَغِّض إليه ما

يسخطه ويكرِّهه إليه، قال تعالى: ﴿...وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

مشهد الأسماء والصفات

وهذا من أجلِّ المعارف وأشرفها، وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة، فإن أسماءه أوصاف مدح وكمال، ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها، وإذا كانت أوصافه صفات كمال، وأفعاله حِكَماً ومصالح، وأسماؤه حسنى، ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل، وأنه بذلك نَسَبُهُ إلى ما لا يليق به، وأن من نَسَبَهُ إلى ذلك فما قَدَّرَهُ حق قَدْرِه، ولا عظَّمه حق تعظيمه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، فأخبر أن هذا حُكم سيّئ لا يليق به، تأباه أسماؤه وصفته، ونظائر هذا في القرآن كثيرة ينفي فيها عن نفسه خلافَ موجبِ أسمائه وصفاته، إذ ذلك مُستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها.

فاسمه «الحميد المجيد» يمنع ترك الإنسان سدىً مهملاً معطلاً لا يُؤمر ولا يُنهى ولا يُثاب ولا يُعاقب، وكذلك اسمه «الحكيم» يأبى ذلك، وكذلك اسمه «الحي» يمنع أن يكون معطلاً من الفعل، وكونه سبحانه «خالقاً قيوماً» من موجبات حياته ومقتضياتها، واسمه «السميع البصير» يوجب مسموعاً ومرئياً، واسمه «الخالق» يقتضي مخلوقاً، وكذلك

«الرزاق»، واسمه «الملك» يقتضي مملكة وتصرفاً وتدبيراً وإعطاءً ومنعاً وإحساناً وعدلاً وثواباً وعقاباً، واسم «البَر المحسن المعطي المنان» ونحوها تقتضي آثارها وموجباتها.

إذا عرف هذا فمن أسمائه سبحانه «الغفار التواب العفوّ»، فلا بد لهذه الأسماء من متعلقات، ولا بد من جناية تُغفر وتوبة تُقبل، وجرائم يعفى عنها، ولا بد لاسمه «الحكيم» من متعلق يظهر فيه حكمه، إذ اقتضاء هذه الأسماء لآثارها كاقتضاء اسم «الخالق الرازق المعطي المانع» للمخلوق والمرزوق والمُعْطَى والممنوع، وهذه الأسماء كلها حسنى، والرب تعالى يحب ذاته وأوصافه وأسماءه، فهو عفوّ يحب العفو، ويحب المغفرة، ويحبّ التوبة، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح.

ومن الآثار: مغفرة الزلات، وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات، والمسامحة على الجنايات، مع كمال قدرته على استيفاء الحق والعلم منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها، فحلمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته، كما قال المسيح ﷺ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة ١١٨]؛ أي: فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك، لست كمن يغفر عجزاً ويسامح جهلاً، بل أنت عليم بحقك قادر على استيفائه، حكيم في الأخذ به، فله في كل ما قضاه وقدّره الحكمة البالغة والآيات الباهرة، والتعرفات إلى عباده بأسمائه وصفاته، واستدعاء محبتهم له وذكرهم له وشكرهم له وتعبّدهم له بأسمائه الحسنى، إذ كل اسم له تعبّد مختصّ به علماً ومعرفةً وحالاً.

وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطّلع عليها البشر، فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبد باسمه «المعطي» عن عبودية اسمه «المانع»، أو عبودية اسمه

«الرحيم والعفوّ والغفور» عن اسمه «المنتقم»، أو التعبد بأسماء «التودد والبر واللطف والإحسان» عن أسماء «العدل والجبروت والعظمة والكبرياء» ونحو ذلك، وهذه طريقة الكُمّل من السائرين إلى الله، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] والدعاء بها يتناول دعاء المسألة ودعاء الثناء ودعاء التعبّد، وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها ويأخذوا بحظهم من عبوديتها.

وهو سبحانه يحبّ موجب أسمائه وصفاته، فهو «عليم» يحب كل عليم، «جواد» يحب كل جواد، «وتر» يحب الوتر، «جميل» يحب الجمال، «عفوّ» يحب العفو وأهله، «حييّ» يحب الحياء وأهله، «برّ» يحب الأبرار، «شكور» يحب الشاكرين، «صبور» يحب الصابرين، «حليم» يحب أهل الحلم. فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة والعفو والصفح؛ خلق من يغفر له ويتوب عليه ويعفو عنه، وقدّر عليه ما يقتضي وقوع المكروه والمبغوض له ليترتب عليه المحبوب له المرضي له.

فالطاعات والتوحيد؛ أسباب محبوبة له موصلة إلى الإحسان والثواب المحبوب له أيضاً، والشرك والمعاصي؛ أسباب مسخوطة له موصلة إلى العدل المحبوب له، وهذا المشهد أجلّ من أن يحيط به كتاب أو يستوعبه خطاب، وإنما أشرنا إليه أدنى إشارة تطلِّع على ما وراءها، والله الموفق والمعين.

مشهد زيادة الإيمان وتعدد شواهده

وهو من ألطف المشاهد، ولعل سامعه يبادر إلى إنكاره ويقول: كيف يشهد زيادة الإيمان من الذنوب والمعاصي؟ وهل ذلك إلا منقص للإيمان، فإنه بإجماع السلف: يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

فاعلم أن هذا حاصل من التفات العارف إلى الذنوب والمعاصي منه ومن غيره، وإلى ترتب آثارها عليها، وترتب هذه الآثار عليها عَلَم من أعلام النبوة، وبرهان من براهين صدق الرسل وصحة ما جاءوا به. فإن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أمروا العباد بما فيه صلاح ظواهرهم وبواطنهم في معاشهم ومعادهم، ونهوهم عما فيه فساد ظواهرهم وبواطنهم في المعاش والمعاد، وأخبروهم عن الله ﷻ أنه إذا أطيع بما أمر به؛ شكر عليه بالإمداد والزيادة والنعم في القلوب والأبدان والأموال، ووجد العبد زيادته وقوته في حاله كلها، وأنه إذا خولف أمره ونهيه ترتب عليه من النقص والفساد والضعف، والذل والمهانة، وضيق العيش وتنكد الحياة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

فقلوب أهل البدع والمعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله،

وأهل المعاصي، في جحيم قبل الجحيم الأكبر، وقلوب الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر، ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]. هذا في دورهم الثلاث ليس مختصاً بالدار الآخرة وإن كان تمامه وكماله وظهوره؛ إنما هو في الدار الآخرة وفي البرزخ دون ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧]. وفي هذه الدار دون ما في البرزخ ولكن يمنع من الإحساس به؛ الاستغراق في سكرة الشهوات وطرح ذلك عن القلب وعدم التفكر فيه، فهو لا يصحو ساعة إلا أحس وشعر بهذا الألم فبادر إلى إزالته بسكر ثان، فهو هكذا مدة حياته وأي عيشة أضيق من هذه؟

وقد جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثاراً محبوبةً لذيذةً طيبةً، لذّتها فوق لذّة المعصية بأضعاف مضاعفة، وجعل للسيئات والمعاصي آلاماً وآثاراً مكروهة وحزازات تربى على لذة تناولها بأضعاف مضاعفة. قال ابن عباس: «إن للحسنة نوراً في القلب وضياءً في الوجه وقوةً في البدن وزيادةً في الرزق ومحبةً في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه وظلمةً في القلب ووهناً في البدن ونقصاً في الرزق وبغضةً في قلوب الخلق»، فما حصل للعبد حال مكروهة قط إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، فكل نقص وبلاء وشر في الدنيا والآخرة فسببه الذنوب ومخالفة أوامر الرب، فليس في العالم شر قط إلا الذنوب.

ومتى انفتح هذا الباب للعبد؛ انتفع بمطالعة تاريخ العالم وأحوال الأمم وما يشاهده من أحوال الناس، فكل ما تراه في الوجود من شرٍّ وألم وعقوبة، وجدب ونقص في نفسك وفي غيرك، فهو من قيام الرب تعالى بالقسط، فالذنوب مثل السموم مضرة بالذات، كما قال بعض

السلف: «المعاصي بريد الكفر، كما أن الحمّى بريد الموت»، فشهود العبد نقص حاله إذا عصى ربه، وتغير القلوب عليه وجفولها منه، وانسداد الأبواب في وجهه، وهوانه على أهل بيته وأولاده وزوجته وإخوانه، فإن أقلع وباشر الأسباب التي تُفضي به إلى ضدّ هذه الحال، رأى العزّ بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والسرور بعد الحزن، والأمن بعد الخوف، والقوة في قلبه بعد ضعفه، فهذا من الذين قال الله فيهم: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

وصاحب هذا المشهد متى تبصَّر فيه وأعطاه حقه؛ صار من أطباء القلوب العالمين بدائها ودوائها، فنفعه الله في نفسه ونفع به من شاء من خلقه، والله أعلم.

مشهد الرحمة

فإن العبد في قلبه تلك الغلظة والقسوة والكيفية الغضبية لمن صدر منه ذنب، حتى لو قُدِّر عليه، وربما دعا الله عليه أن يهلكه ويأخذه غضباً منه لله، وحرصاً على أن لا يعصى، فلا يجد في قلبه رحمة للمذنبين الخاطئين، ولا يراهم إلا بعين الاحتقار والازدراء، ولا يذكرهم إلا بلسان الطعن فيهم والعيب لهم والذم، فإذا جرت عليه المقادير فوقع في الذنب، خرج من قلبه تلك الغلظة والقسوة والكيفية الغضبية التي كانت عنده لمن صدر منه ذنب، فاستغاث الله والتجأ إليه، وتململ بين يديه، ودعاه دعاء المضطر، فتبدلت تلك الغلظة على المذنبين رقَّة، وتلك القساوة على الخاطئين رحمة ولیناً، وتَبَّدَلَ دعاؤه عليهم دعاء لهم، وجعل لهم وظيفة من عمره يسأل الله أن يغفر لهم.

فما أنفعه له من مشهد! وما أعظم جدواه عليه! والله أعلم.

مشهد العجز والضعف

وأنه أعجز شيء عن حفظ نفسه وأضعفه، وأنه لا قوة له ولا قدرة ولا حول إلا بربّه، فيشهد قلبه كَرِيشة ملقاةٍ بأرض فلاة تقلبها الرياح يميناً وشمالاً وهو طريحٌ بين يدي وليِّه ملقى ببابه، لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وهكذا حال العبد ملقىً بين الله وبين أعدائه من شياطين الإنس والجن، فإن حماه منهم وكفَّهم عنه لم يجدوا إليه سبيلاً، وإن تخلّى عنه ووكله إلى نفسه طرفة عين صار نصيب مَنْ ظفر به منهم، وفي هذا المشهد يعرف نفسه حقاً ويعرف ربه وفيه **ثلاث تأويلات**:

أحدها: أن من عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة، ومن عرفها بالذل عرف ربه بالعز، ومن عرفها بالجهل عرف ربه بالعلم، فإن الله سبحانه استأثر بالكمال المطلق، والحمد والثناء، والمجد والغنى، والعبد فقير ناقص محتاج، وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعيبه وفقره وذله وضعفه ازدادت معرفته لربه بأوصاف كماله.

الثاني: أن من نظر إلى نفسه وما فيها من الصفات الممدوحة من القوة والإرادة والكلام والحياة عرف أن من أعطاه ذلك وخلقه فيه أولى به، فمعطي الكمال أحق بالكمال.

والمقصود: أن هذا المشهد يعرف العبد أنه عاجز ضعيف، فتزول عنه رعونات نفسه، ويعلم أنه ليس له من الأمر شيء إن هو إلا محض العجز والضعف.

مشهد الذل والانكسار

والخضوع والافتقار للرب جلّ جلاله، فيشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورةً تامةً، وافتقاراً تاماً إلى ربه ووليّه ومن بيده صلاحه وفلاحه وهداه وسعادته، فيحصل لقلبه كسرة خاصة لا يشبهها شيء، فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما مَنَّ ربه إليه من الخير، ويرى أنه لا يستحق قليلاً منه ولا كثيراً، واستقلَّ ما من نفسه من الطاعات لربه، ولو ساوت طاعات الثقلين، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه، فإن الكسرة التي حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله، فما أقرب النصر والرحمة والرزق من هذا القلب المكسور، وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه! وذرَّة من هذا ونَفَس منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من المدلّين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم.

وأحب القلوب إلى الله سبحانه قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة، وملكته هذه الذِّلة، فهو ناكس الرأس بين يدي ربه لا يرفع رأسه إليه حياءً وخجلاً من الله، فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه، إذا سجد القلب لله هذه السجدة العظمى سجدت معه جميع الجوارح، وعنا الوجه حينئذ للحي القيوم، فلا يُرى إلا متملقاً لربه خاضعاً له ذليلاً مستعطفاً له، يسأله عطفه ورحمته؛ لأنه لا حياة له ولا فلاح إلا في قربه ورضاه عنه ومحبته له.

وصاحب هذا المشهد؛ يشهد نفسه كرجل كان في كنف أبيه يغذوه بأطيب الطعام والشراب واللباس، ويربيه أحسن التربية، فبعثه أبوه في حاجة له، فخرج عليه في طريقه عدو فأسره وكتَّفه وشدَّه وثاقاً، فسامه سوء العذاب، فبينا هو في أسر عدوه ويريد نحره في آخر الأمر، إذ حانت منه التفاتة إلى نحو ديار أبيه فرأى أباه منه قريباً، فسعى إليه وألقى نفسه عليه، وانطرح بين يديه يستغيث، وعدوه في طلبه، فهل تقول: إن والده يسلمه مع هذه الحال إلى عدوه ويخلي بينه وبينه؟ فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده ومن الوالدة بولدها؟

إذا فرَّ عبد إليه وهرب من عدوه إليه، وألقى بنفسه طريحاً ببابه يمرّغ خدّه في ثرى أعتابه، باكياً بين يديه يقول: يا ربِّ يا ربِّ، ارحمْ من لا راحمَ له سواك، ولا ناصر له سواك، ولا مؤويَ له سواك، ولا مغيث له سواك، لا ملجأ له ولا منجا له منك إلا إليك.

فإذا استبصر في هذا المشهد تمكّن من قلبه وباشره وذاق طعمه وحلاوته تَرَقَّى منه إلى المشهد التالي.

مشهد العبودية والمحبة

وهو الغاية التي شمّر إليها السالكون وأمّها القاصدون، وهو مشهد العبودية والمحبة والشوق إلى لقائه والفرح والسرور به، فتقرّ به عينه، ويسكن إليه قلبه، وتطمئن إليه جوارحه، ويستولي ذكره على لسان محبَّه وقلبه؛ فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية، وإرادات التقرب إليه وإلى مرضاته مكان إرادة معاصيه ومساخطه، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات مكان حركاتها بالمعاصي، قد امتلأ قلبه من محبته، ولهج لسانه بذكره، وانقادت الجوارح لطاعته، فإن هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب في المحبة لا يُعبر عنه.

ويحكى عن بعض العارفين أنه قال: دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها، فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام فلم أتمكن من الدخول، حتى جئت باب الذل والافتقار، فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه، ولا مزاحم فيه ولا معوِّق، فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدي وأدخلني عليه، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه يقول: «من أراد السعادة الأبديّة فليلزم عتبة العبودية».

والقصد: أن هذه الذِّلة والكسرة الخاصة تدخله على الله وترميه على طريق المحبة، فيُفتح له منها بابٌ لا يُفتح له من غير هذه الطريق، والسالك بهذه الطريق غريب في الناس، هم في واد وهو في واد، يسبق

النائمُ فيها على فراشِهِ السُعَاة، فيصبح وقد قطع الطريق وسبق الركب، بينا هو يحدثك وإذا به قد سبق السعاة والله خير الغافرين، وهذا الذي حصل له من آثار محبة الله له، وفرحه بتوبة عبده، فإنه سبحانه يحب التوابين ويفرح بتوبتهم أعظم فرح وأكمله.

فكلما طالع العبد مِنَنَ ربه سبحانه عليه قبل الذنب، وفي حال مواقعته وبعده، وبره به وحلمه عنه وإحسانه إليه؛ هاجت من قلبه لواعج محبته والشوق إلى لقائه، فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها. وأي إحسان أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصي وهو يمدّه بنعمه ويعامله بألطافه، ويسبل عليه ستره، ويحفظه من خطفات أعدائه، والرب تعالى يقول: «**من تقربَّ منِّي شبراً تقرَّبتُ منهُ ذراعاً، ومن تقرَّب مني ذراعاً تقرَّبت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيتُهُ هرولةً، ومن لقِيَني بقرابِ الأرضِ خطيئةً ثم لا يُشرِكُ بي شيئاً لقيتُهُ بمثلِها مغفرةً**»[1].

والله الموفق لمراعاة ذلك، والقيام به عملاً وحالاً، فما خاب من توكل عليه، ولاذ به ولجأ إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) صحيح سنن ابن ماجه (١٢٥٥).

خاتمة دروس التوبة

﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

فنختم الكتاب بهذه الآية حامدين لله مثنين عليه بما هو أهله، وبما أثنى به على نفسه.

والحمد لله ربِّ العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعِزِّ جلاله غير مكفي ولا مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا. ونسأله أن يوزعنا شكر نعمته، وأن يوفقنا لأداء حقه، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يجعل ما قصدنا له في هذا الكتاب وفي غيره ـ خالصا لوجهه الكريم ونصيحة لعباده.

فيا أيها القارئ له لك غُنمه وعلى مؤلفه غُرمه، لك ثمرته وعليه تبعته، فما وجدت فيه من صواب وحق فاقبله ولا تلتفت إلى قائله، بل انظر إلى ما قال لا إلى من قال، وما وجدت فيه من خطأ فإن قائله لم يألُ جهد الإصابة، ويأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال كما قيل:

والنقص في أصل الطبيعة كامن فبنو الطبيعة نقصهم لا يجحد

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمد، وعلى آله أجمعين.

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
اشتمال سورة الفاتحة على إثبات النبوات وطلب الهداية	٩
طوائف المنعم عليهم والمغضوب عليهم وأهل الضلال في سورة الفاتحة	١١
أضاف الله إلى نفسه أكمل الأمور	١٣
ذكر الرفيق يزيل الوحشة	١٤
وسيلة سؤال الله تعالى	١٦
دلالة أسماء الله ﷻ	١٨
اسم الله دال على جميع الأسماء الحسنى	٢٠
دلالة اسم الرحمٰن	٢١
دلالة الحمد	٢٢
مراتب الهداية الخاصة والعامة وهي عشر مراتب	٢٣
اشتماله الفاتحة على الشفاءين **وأولها** شفاء القلوب	٢٨
ثانيها: اشتمال الفاتحة على شفاء الأبدان	٣٠
العبادة والاستعانة وأقسام الناس فيهما	٣٢
أقسام الناس في العبادة والاستعانة	٣٣
أصلان عظيمان المتابعة والإخلاص وأقسام الناس فيهما	٣٧
أفضل العبادة وأنفعها وأصناف الناس فيها	٣٩
أصل العبادة محبة الله وطاعته	٤٣

الموضوع	الصفحة

قواعد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وكمال أصحابها والبشارة لهم ٤٥
العبودية وصف أكمل الخلق ٤٧
لزوم إياك نعبد لكل عبد إلى الموت ٤٨
أهل العبودية لهم البشرى ٤٩
انقسام العبودية إلى عامة وخاصة ٥٠
قواعد العبودية ٥١
عبودية القلب ٥١
عبوديات اللسان ٥٣
عبودية الجوارح ٥٤
المنازل الأساسية الأربعة الأولى ٥٩
أولاً: منزلة اليقظة ٦١
التمحيص ٦٢
مطالعة الجناية ٦٣
منزلة الفكرة ٦٥
منزلة البصيرة ٦٧
منزلة العزم ٧٠
منزلة المحاسبة ٧٢
الركن الأول: من أركان المحاسبة أن تقايس بين نعمته وجنايتك ٧٢
الركن الثاني: من أركان المحاسبة ٧٤
ثالث أركان المحاسبة ٧٥
منزلة التوبة ٧٨
معاني التوبة ٨٠
شروط التوبة ٨٢
حقائق التوبة ٨٤
علامات وموجبات قبول التوبة ٨٦
صولة العاملين أخطر من كبائر المذنبين ٨٨
ليس من التوبة الاعتذار بالقدَر ٨٩

الموضوع	الصفحة

التوازن في فهم القدر ٩٢
سرائر حقيقة التوبة ٩٤
معرفة عزّة الله ﷻ عند التوبة ٩٦
عظم رحمة الله بعبده وعظم فرحه بتوبته ٩٩
قيام حجة الله ﷻ قبل العقوبة ١٠٢
النظر إلى النفس الأمارة بالسوء ١٠٣
النظرُ إلى الشيطانِ الآمرِ بالمعصيةِ وعقباتِه السبعِ ١٠٥
العقول السليمة والفطر القويمة تستقبح المعصية وتستحسن الفضيلة ١١٠
عندما يورث الاستكثار من الطاعات غفلة ١١٢
أرفع مقامات المستغفرين ١١٤
أحكام التوبة ١١٧
حكم المبادرة إلى التوبة ١١٧
هل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؟ ١١٨
هل يشترط في صحة التوبة ألا يعود إلى الذنب أبداً؟ ١١٩
هل تحبط الحسنات بالسيئات والسيئات بالحسنات؟ ١٢٠
هل يدفع الراجح المرجوح من الحسنات والسيئات؟ ١٢١
هل تعود له حسناته التي استغرقتها سيئاته الحديثة بعد التوبة؟ ١٢١
هل تصح توبة العاصي إذا حيل بينه وبين أسباب المعصية؟ ١٢٢
ما معنى الآية ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾؟ ١٢٣
إذا كان الذنب متعلقاً بحق آدمي، فهل يشترط تحلله منه؟ ١٢٤
وإن كانت المظلمة غيبةٌ أو قذفاً، فهل يشترط في توبته منها إعلامه بذلك بعينه والتحلل منه؟ ١٢٤
هل يعود العبد بعد التوبة إلى ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة؟ ١٢٥
هل المطيع الذي لم يعصِ خيرٌ من العاصي الذي تابَ إلى الله توبةً نصوحاً؟ ١٢٧
هل حقيقة التوبة عدم المعاودة للذنب والإقلاع عنه؟ ١٣٠
أنواع الاستغفار ١٣١

الموضوع	الصفحة

حقيقة التوبة النصوح ١٣٣
الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب ١٣٥
توبة العبد بين توبتين من الله ﷻ ١٣٧
مبدأ التوبة ومنتهاها ١٣٩
اللمم من الذنوب ١٤٠
الكبائر ١٤٢
تحول الكبائر إلى صغائر والصغائر إلى كبائر ١٤٤
يعفى للمحب ما لا يعفى لغيره ١٤٥
نور الإيمان يبدد ضباب الذنوب ١٤٧
أثر التوحيد على الأعمال ١٤٩
المحب يسامَح بما لا يسامَح به غيره، ويعاقَب بما لا يعاقَب به غيره ١٥١
أجناس ما يتاب منه ١٥٣
أنواع الكفر ١٥٤
أنواع الكفر الأكبر ١٥٥
الحذر من الشرك الأكبر ١٥٧
الشرك الأصغر ١٥٩
من أنواع الشرك ١٦٠
داء النفاق ١٦٢
علامات المناققين ١٦٤
عقوبات المناققين ١٦٩
الفسوق والعصيان ١٧١
الإثم والعدوان ١٧٣
الفحشاء والمنكر ١٧٥
القول على الله بلا علم أشد المحرمات تحريماً وأعظمها إثماً ١٧٦
مشاهد الخلق في المعصية ١٧٩
مشهد الحيوانية ١٨٠
مشهد الحكمة ١٨٣

الموضوع	الصفحة

مشهد التوحيد ١٨٦
مشهد التوفيق والخذلان ١٨٨
مشهد الأسماء والصفات ١٩٠
مشهد زيادة الإيمان وتعدد شواهده ١٩٣
مشهد الرحمة ١٩٦
مشهد العجز والضعف ١٩٧
مشهد الذل والانكسار ١٩٩
مشهد العبودية والمحبة ٢٠١
خاتمة دروس التوبة ٢٠٣
فهرس ٢٠٤